A
892.71
R949Y

سلسلة الأعمال المجهولة

مَعْرُوف الرَّصافي

نجدة فتحي صفوة

...t campus
24 NOV 2010
RECEIVED

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

Lib. Antoine 183546

THE UNKNOWN WORKS OF: MA'ROUF AL-RASAFI

COMPILED AND EDITED

by

NAJDAT FATHI SAFWAT

First Published in Great Britain in 1988
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data Available

ISBN 1 - 869844 - 00 - 9

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة ٧
خواطر وأفكار ٥٧
الرصافي بقلمه ٥٩
خواطر وأفكار ٦١
لو كنت مصوراً ٦٣
الحق والباطل ٦٤
في عالم الأدب ٦٦
الشعر والحقيقة ٧٠
التصفيق ٧١
التنقيب بالاضافة الى الدين ٧٢
إله بني اسرائيل ٧٥
الأغاني ٧٧
الموسيقى الآلية والصوتية ٧٨
الموت والحياة ٧٩
في معرض اللغة أدعاية أم دعاوة ٨٠
أيضاً ٨١
كتاب القبض ٨٢
الأذان عند المسلمين ٨٣
القرآن في الراديو ٨٩

مقتل الحسين والفتن الإسلامية ٩٢
الاشتراكية في الإسلام ٩٧
مؤلفات الرصافي وما كتب عنه ١٠٣

مقدمة

يأتي نشر هذا الكتاب المجهول لمعروف الرصافي مناسبة طيبة لإحياء ذكرى شاعر كان من أبرز أعلام النهضة الشعرية في العراق، ومن أشهر شعراء العربية في الجيل الماضي. ولئن شُغل الجيل الجديد عنه اليوم بغيره من الشعراء المعاصرين الذين يعبرون عن مشاكل العصر وقضايا الساعة، فقد كان الرصافي مثلهم يعبر عن وجدان الأمة، ويشغل العالم الأدبي في زمانه. ومع ذلك، لا يمكن أن يقال ان الرصافي أصبح شاعراً منسياً، فقد احتل مكانة باقية بين شعراء العربية الخالدين، كالمتنبي وأبي العلاء والبحتري وأبي تمام من القدماء، وشوقي وحافظ والزهاوي من المحدثين. واننا لا نجد في الصحافة الأدبية والسياسية مقالة عن المتنبي كل يوم، ولا قصيدة لشوقي في كل عدد، ومع ذلك فلا يقال أنهما أصبحا منسيين.

لقد احتل الرصافي في تاريخ العرب الأدبي مكانة خالدة، وكان في زمانه مالئ الدنيا وشاغل الناس، تغنّت بقصائده الركبان، وسارت أبياتها مسير الأمثال. وكانت مواقفه الوطنية والسياسية الجريئة ملء الأسماع والقلوب في العراق والشرق العربي من أقصاه الى أقصاه، وورث مبادئه الوطنية وآراءه الإجتماعية ومدرسته الأدبية جيل كامل من شباب العراق خاصة، والبلاد العربية بصورة عامة.

وقد خلّف الرصافي الى جانب ديوانه الضخم الذي طبع زهاء عشر مرات، ومؤلفاته المطبوعة الأخرى، عدداً من الكتب المخطوطة التي لم يُكتب لها أن ترى النور، ولم يطلع عليها سوى نفر قليل من خاصته ومريديه. ولعلّ بعضها سينتظر مدة طويلة أخرى قبل أن تسمح الظروف وتتسع الصدور لطبعها وتداولها.

ولعل أهم مؤلفات الرصافي المخطوطة وأخطرها كتابه «الشخصية المحمدية أو حلّ اللغز المقدس»، وهو بحث تحليلي لشخصية الرسول الكريم (ص) كان حصيلة دراسة طويلة وعميقة لكتب السيرة النبوية، وفيه كثير من النظرات الجديدة والآراء الجريئة. وقد راودت الرصافي فكرة تأليفه عام ١٩٢٩، وشغل عنها زمناً، ثم كتبه خلال إقامته في الفلّوجة بين سنتي ١٩٣٣ و١٩٤١. وتوجد نسخة مصورة منه عن النسخة التي كتبها الرصافي بخطه، محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

ومن مؤلفات الرصافي المخطوطة أيضاً كتاب بعنوان «الأدب الرفيع في ميزان الشعر» وهو مجموعة المحاضرات التي ألقاها على طلاب دار المعلمين العالية ببغداد في علم العروض والقافية.

ومنها «الرسالة العراقية»، وهو مجموعة بحوث في السياسة والدين والإجتماع، كتبه في الفلوجة عام ١٩٤٠.

ومنها أيضاً «كتاب الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات» وهو كتاب أشبه بالمعجم يهدف فيه الى تعريب الكلمات التي إستقتها العامة في العراق من لغات أجنبية، كما يدعو الى توسيع الإشتقاق في اللغة ولو كان من غير المسموح إشتقاقه عند العرب لكي تكون اللغة العربية قادرة على التطور ومسايرة تقدم العلوم والفنون الحديثة.

ومن مخطوطات الرصافي أيضاً كتابه الموسوم «دفع المراق في كلام أهل العراق»، وهو محاولة لرد اللغة العامية العراقية الى أصولها والمصادر التي إنتقلت منها اليها.

أما الكتاب الذي بين أيدي القراء اليوم «خواطر وأفكار» فقد كتبه الرصافي في الفلوجة عام ١٩٤٠ أيضاً، في دفتر مدرسي صغير، ثم أعاره أحد أصدقائه فبقيت المخطوطة لديه حتى وفاة الرصافي، ثم أودعها ذلك الصديق لدى كاتب هذه السطور، فبقيت عنده أكثر من ثلاثين عاماً. وقد ذكرت جميع المصادر التي عددت مؤلفات الرصافي كتاباً مخطوطاً له باسم (خواطر ونوادر)، وأغلب الظن أنه هو هذا الكتاب. والنسخة التي لدينا - وهي بخط الرصافي - تحمل على غلافها وصفحتها الأولى عنوان (خواطر وأفكار).

ولما شرعت (دار رياض الريس للكتب والنشر) بإصدار «سلسلة الأعمال المجهولة» أعادت الى الذاكرة هذه المخطوطة القيمة للرصافي، وجاءت فكرة نشرها ضمن هذه السلسلة الفريدة، ولكل كتاب أجل.

ومن المعروف أن انتاج الرصافي الشعري قد نضب أو كاد في أواخر الثلاثينات، وفقد رنته القديمة وتدفقه السابق. ولكن الرصافي انصرف بعد ذلك

الى التأمل في شؤون الحياة والموت، والدين والأخلاق، والأدب واللغة، وكتب عدة مؤلفات نثرية أودعها حصيلة أفكاره وعصارة ثقافته اللغوية والتاريخية، وهذا الكتاب أحدها.

ويحتوي هذا الكتاب على خواطر عنّت له في الأدب واللغة والدين والمجتمع. وقد جاءت هذه الخواطر - كما قال الرصافي - حرة طليقة في سنوحها من كل قيد، لم يرم ورائها الى غاية خاصة، ولا أراد بها إقناع مخالف أو ارضاء موافق.

وهذه الخواطر كتبت بأسلوب مشوّق وطريف، فيه تركيز عميق، وفيه تحدّ وإثارة، وهي تفتح آفاقاً جديدة للتفكير، مع ما أتسم به أسلوب الرصافي من متانة العبارة وسهولتها في آن واحد.

ان مكانة الرصافي الأدبية، والشهرة الواسعة التي حصل عليها في زمانه، لم تكن بما أدخله على الشعر وأساليبه من تجديد، أو ما ابتدعه من أشكال أدبية لم يسبقه اليها سابق من الأدباء أو الشعراء، بل أن ميزته الحقيقية تكمن في طبيعة الموضوعات التي تناولها، والجرأة التي عالجها بها في بيئة كانت التقاليد - من أدبية واجتماعية وسياسية - محيطة بها من كل جانب. وفي غمرة الركود الأدبي والتأخر الاجتماعي والغفوة السياسية ظهر متحرراً من الأفكار القديمة ثائراً عليها ثورة تدعمها الحجة القوية، ونظر الى مجتمعه نظرة متجددة، واعتنق من المبادىء أحدثها، وانتقد الأنظمة السياسية والإجتماعية القائمة، ودافع عن مشاعر الأمة وعبر عن نزعاتها الوطنية، ونادى بمحاربة الفقر والجهل والمرض، وبحقوق المواطن في الحياة الحرة الكريمة، وحقوق المرأة في المجتمع، وفعل ذلك بجرأة كبيرة، وصراحة لم تكن مألوفة في عهده، ولكن صراحته كانت مقبولة، لأنها استندت الى علم غزير ومعرفة واسعة، وشخصيته بقيت محترمة في كل مجتمع عاش فيه، سواء أكان ذلك في استانبول، أو دمشق أو القدس أو في موطنه بغداد.

ولئن ثار الرصافي على القدماء في تفكيرهم، وخرج عليهم في كثير من آرائهم ومعتقداتهم، فانه جاراهم في أسلوبهم، وفي محافظتهم على الديباجة القوية والبيان المحكم والسبك المتين والحرص على جمال اللغة العربية وسلامتها، وليس ذلك مما يعاب عليه، بل انه ليزيده فضلا، ويضفي على أدبه عنصراً آخر من القوة.

وقد نشأ الرصافي نفسه نشأة محافظة، وتلقى دراسة دينية، وترعرع في بغداد في أواخر عهد الدولة العثمانية في بيئة أطبقت عليها التقاليد الموروثة. ولم يكن يعرف غير التركية لغة أجنبية يستعين بآدابها ومراجعها على تغذية طموحه الفكري، واستكمال ثقافته وتنمية شاعريته وتوسيع آفاقه والاطلاع

على ما يجد في العالم المتمدن من مظاهر الرقي الفكري والإجتماعي، ومدارس الفكر السياسي، ومذاهب الأدب العالمي. ولكنه مع ذلك نشأ عصري المبادىء والآراء، واسع الأفق، غزير المعرفة، وذلك هو النبوغ الذي لا يتقيد بزمان ولا مكان، و إنما يصدر من حين الى حين كالانتفاضة عن وجدان الأمة في شخص أحد ابنائها الموهوبين، الذين لا يجود الزمان بمثلهم الا من حين الى حين.

نشأة الرصافي

ولد الرصافي في محلة القره غول في بغداد عام ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٥ ميلادية) في عهد السلطان عبد العزيز.

وكان أبوه، عبد الغني محمود، عريفاً في الجيش العثماني، كردي الأصل من عشيرة الجبارة (أو الجبارية) في لواء كركوك. اشترك في الحرب الروسية عام ١٨٧٧، فلما عاد انخرط في سلك الدرك (الجندرمة) الذي كان يتولى المحافظة على الأمن خارج المدن، ولذلك كان كثير الأسفار، قلما يقطن بغداد، ولم يكن إبنه معروف يراه إلّا لماماً، وقد عنيت بتنشئته أمه (فاطمة بنت جاسم) التي لم تلد سواه، فتعلقت به وتعلق بها، وكان لها أثر عميق في نفسه، وهي التي «كانت مرجعه في كل شيء، حتى بعد تجاوزه العقد الأول من حياته، وهي التي كانت ترسله الى الكتّاب وهو صغير، وهي التي كانت تجهز له كل ما يلزم لذلك».

وواظب معروف على الذهاب الى الكتاب، فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء الكتابة، ثم انتقل الى الدراسة الابتدائية، وبعد ثلاث سنوات تركها وانتسب الى المدارس الدينية، ودرس في بادىء الأمر على يد عدد من كبار العلماء في بغداد، ثم التحق بحلقة علامة عصره الشيخ محمود شكري الألوسي، وأخذ يتلقى عليه علوم الدين والفقه وعلوماً أخرى كاللغة والمنطق. ولازم الرصافي استاذه اثنتي عشرة سنة. وكان الاستاذ معجباً بنبوغ تلميذه وذكائه المفرط، وهو الذي أطلق عليه لقب (الرصافي) تيمناً بأن يكون صنو سميّه معروف الكرخي.[1] وفي هذه الحقبة من حياته بدأ الرصافي بنظم الشعر على الطريقة القديمة، وكان أكثر ما ينظم في سبيل التدريب ولتقوية ملكته الشعرية في مدح أستاذه الألوسي وتهنئته في شتى المناسبات.

(١) معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، ٨١٥م) من أعلام الزهّاد والمتصوفين. ولد في كرخ بغداد واشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك وكان الامام أحمد بن حنبل من جملة من يختلف اليه وهو مدفون في المقبرة المعروفة باسمه في بغداد.

الرصافي شخصية خيالية

ولما بلغ مرحلة الشباب عُيّن معلماً في احدى المدارس الأولية، وتدرج في وظائف التعليم حتى أصبح مدرساً في المدرسة (الاعدادية) الرسمية وكان لا يزال يرتدي العمامة البيضاء والجبة، ويرسل لحيته. وأخذ الرصافي ينشر قصائده في المجلات والجرائد المصرية والسورية، ومنها (المقتبس) و(المؤيد) و(المقتطف) حتى ذاعت شهرته، ونال اهتمام القراء واعجاب الأدباء في العالم العربي وفي المهجر. وبلغ من اعجاب الناس بقصائده أن بعضهم حسب أن (معروف الرصافي) هو اسم مستعار لشاعر كبير لا يريد الإفصاح عن هويته. حتى ان الصحافي اللبناني نعوم لبكي ـ والد الشاعر صلاح لبكي ـ كتب مقالة في جريدة (المناظر) التي كان يصدرها في نيويورك قال فيها إن «معروف الرصافي» توقيع مستعار لشاعر عربي عظيم موطنه غير بغداد التي يتظاهر بالانتساب اليها على صفحات الجرائد، اذ يستحيل أن ينبغ في العراق المتأخر في أدبه وعلومه في هذه الأيام، وفي غيهب الاستبداد الحميدي وتضييق الخناق على المفكرين الأحرار، مثل هذا الشاعر الحر، الذي يختلف في جرأته وسعة أفقه، فضلا عن ديباجته البديعة. فانبرى للردّ عليه محمد كرد علي في مقالات نشرها في جريدة (المؤيد) القاهرية، وكثر الأخذ والرد بينهما واثبت محمد كرد علي أن معروف الرصافي هو الأسم الحقيقي لشاعر معاصر من بغداد حقاً.[2]

وإذا ذهب الظن بنعوم لبكي الى ذلك وهو بعيد في المهجر، وكان له في ذلك بعض العذر، فان الشاعر المشهور بشارة الخوري (الأخطل الصغير) المقيم في لبنان كتب في هذا المعنى أيضاً قائلاً:

«سبقت الرصافي شهرته الينا بما كانت تنشره له صحف مصر قبل إعلان الدستور من غرر القصائد، تنبعث منها نفحات الحرية، ويتطاير من جوانبها شرار الوطنية، حتى اعتقدنا أن معروف الرصافي اسم مستعار لشاعر عراقي كبير...»[3]

وواظب الرصافي على تدريس اللغة العربية في المدرسة الاعدادية حتى اعلان الدستور الثاني في العاشر من تموز (يوليو) ١٩٠٨. وكان اعلان الدستور حدثاً خطيراً قوبل بتأييد شامل وأحدث في أرجاء الدولة ضجة كبيرة، ورحب به الشعراء العرب والأتراك. ونظم الرصافي بهذه المناسبة قصيدة من غرر قصائده

(٢) رفائيل بطي، مقالة في مجلة (الأديب) الجزء الخامس، السنة الرابعة، بيروت ١٩٤٥.

(٣) رفائيل بطي، جريدة (البلاد)، بغداد، العدد ١٨٨ لسنة ١٩٣٠.

الأولى قائلاً في مطلعها:

أكـرم بتـمـوز شهـراً إنّ عاشره ... قد كان للشرق تكـريـمـاً وتـعـزيـزا

شهر به الناس قد أضحت محرّرة ... من رقّ من كان يقـفـو إثـر «جنكيـزا»

وأخذ نشاط جمعية الاتحاد والترقي ـ وهي في الواقع حزب سياسي سمي «جمعية» ـ يزداد، ودائرة نفوذها تتسع، وكان مما عمد اليه الاتحاديون انشاء فروع وأندية للجمعية في مختلف المدن العربية وفي الدولة العثمانية، وجعلوا أزمّتها في أيـدي موظفين أو ضباط متحمسين لمبادئها. وقد افتتح أول فرع لجمعيـة الاتحـاد والترقي في بغداد عام ١٩٠٨، وكانت عضويته في البداية تقتصر على الموظفين وضباط الجيش وبعض اليهود، ولكنها حظت بتأييد بعض العراقيين المثقفين.

وقـرر (الاتحاد والترقي) على اثر اعلان الدستور اصدار جريدة في بغداد باللغتين العـربية والتركية اسمها (بغداد)، واختير الرصافي رئيساً لتحرير القسم العربي فيها. وقد صدر العدد الأول من الجريدة في ٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٠٨.(٤)

حادثة جامع الوزير

وفي تلك الآونـة حدثت في بغداد حادثة (جامع الوزير) التي كان الرصافي محورها. فقد كان من أهم الاجراءات التي استتبعت اعلان الدستور العثماني إعادة الحياة النيابية ـ وكان السلطان عبد الحميد قد عطلها منذ سنة ١٨٧٨ ـ واجـراء الانتـخـابـات العامة في ولايات الدولة. ولما اقترب موعد الانتخابات أرسلت جمعيـة الاتحـاد والتـرقي الى بغـداد وفـداً مهمته تهيئة الجو لها، وتـوجيهـا لمصلحـة الاتحاديين. وأعد الاتحاديون في بغداد للوفد استقبالاً فخماً، وبالغوا في الترحيب به، وصادف أن كان وصول الوفد في يوم السبت، حين يعطل اليهود أعمالهم، فخرجت أعداد كبيرة منهم للمشاركة في الاستقبال. وكان «مكتوبجي» الولاية ـ أي «مدير التحريرات» ـ اتحادياً بارزاً. وقد شوهد خلال مراسم الاستقبال وهو يدخن علناً قبل غروب الشمس، وكان شهر رمضان في منتصفـه، مما سبب نفرة كبيرة من الاتحاديين الذين كانوا يُتهمون أصلاً بالخروج على الدين، والتعاون مع الانكليز واليهود والماسونيين.

(٤) كان صاحب هذه الجريدة ورئيس تحريرها المسؤول (مراد بك سليمان) شقيق كل من محمود شوكت باشا الذي أصبح رئيساً للوزراء في الدولة العثمانية، وحكمت سليمان الذي أصبح رئيساً للوزراء في العراق.

وأعلن عقب وصول الوفد عن عقد اجتماع كبير في اليوم التالي في أحد جوامع بغداد الكبيرة، وهو (جامع الوزير)، وفي الوقت المحدد حضر الى الجامع عدد كبير من أعيان بغداد وكتابها وأدبائها وقيل إنه كان بينهم عدد من اليهود أيضاً، وكان الناس يؤدون صلاة العصر. فصعد الرصافي على كرسي أعد له في صحن الجامع، وقرأ خطاباً حمله الوفد معه من استانبول في الدعوة لمبادىء حزب الاتحـاد والترقي «الذي يعمل على تحقيق حرية الشعب ونشر العدل بينهم ومساواتهم في الحقوق» وتشجيع الناس على انتخاب من يتوسمون فيه الكفاءة الشخصية، وليس استناداً الى نفوذه المحلي وثروته.

ولما انتهت تلاوة الخطاب، وتفرق الناس، أشاع خصوم الاتحاديين أن القوم أهـانـوا الدين الاسـلامي في الجامع وأدخلوا اليهود الى حرمه، وان معروف الرصافي أسكت قارىء القرآن أو الواعظ وأهانه. وانتشر الخبر في بغداد، فثارت ثائرة أهلها، وخرج الناس في مظاهرات صاخبة، وتبعهم الغوغاء والصبيان، وطافوا في شوارع بغداد وأسواقها وهم ينادون: (الدين يا محمداه).

ويروي علي ظريف الأعظمي ان المتظاهرين بينما كانوا ينادون (الدين يا محمداه) نهبوا في طريقهم الأسواق، وسلبوا بعض اليهود، واعتدوا على كثير من النـاس وفعلوا أفعـالاً مخـزية، ثم صاروا يدخلون السراي ويخرجون منه منادين بطلب الحكم بالشريعة الاسلامية ولغو الدستور.

وازاء هذا الهياج الشعبي العارم، اضطر الوالي ـ الذي لم يكن اتحادياً ـ الى توقيف الرصـافي واثـنـين آخـرين تهـدئة للناس وتفادياً لمزيد من المظاهرات والاضطرابات. واحتُجز الثلاثة يوماً أو بعض يوم، ولما قرر الوالي الإفراج عنهم رفضوا مغادرة السجن حتى يعرفوا ما هي المعلومات التي استُند اليها في توقيفهم.(٥)

وواصـل الرصافي عمله الصحفي ونشاطه الأدبي ونشر قصائده الوطنية والسياسية الجريئة، ولعله كان الشاعر الوحيد الذي طالب بخلع السلطان عبـد الحميد عقب اعلان الدستور، بل انه دعا الى إسقاط الملكية، وكان أول شاعر عربي حبذ النظام الجمهوري في قصيدته «رقية الصريع» التي قال فيها:

(٥) أنظر في تفاصيل هذا الحادث: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، بغداد، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠، وخـواطر وأحـاديث في التاريخ (فصل بعنوان «من أحداث بغداد في عهد الدستور العثماني سنة ١٩٠٨») لكاتب هذه السطور، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٤ ـ ٢٦، وهنالك أيضاً تقرير للمقيم السياسي والقنصل العام البريطاني في بغداد في ذلك الوقت، الكرنل رامزي، الى سكرتير حكومة الهند بتاريخ ١٩ تشرين الأول سنة ١٩٠٨، محفوظ في مركز الوثائق العامة بلندن برقم: (F.O 371/560 (42965)

كيف القرار على أمور حكومة ... حادت بهن عن الطريق الأمثل
في الملك تفعل من فظائع جورها ... ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل
أبت السياسة أن تدوم حكومة ... خُصّت برأي مقدس لم يُسأل
يا أمة رقدت فطال رقادها ... هبّي، وفي أمر الملوك تأملي
ان الحكومة وهي جمهورية ... كشفت عماية قلب كل مضلل

في الآستانة

على أن حزب الاتحاد والترقي بعد أن استتبت له الأمور، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني، حاد عن مبادئه تدريجياً، اتّجه الى إتباع سياسة قومية تركية، فساء ذلك القوميات الأخرى بعد أن كان ولاؤها للدولة يقوم على أساس الرابطة العثمانية التي إجتمعت تحت لوائها جميع القوميات في الامبراطورية العثمانية. وكان من أكثر الصحافيين الأتراك عداوة للعرب وبغضاً لهم (أحمد جودت) صاحب جريدة (إقدام) التي كانت تصدر في استانبول. فقام جماعة من العرب المقيمين في العاصمة بإهانة صاحبها كما أهان عروبتهم، وذهب عدد من النواب العرب في (مجلس المبعوثان) الى الصدر الأعظم ـ رئيس الوزراء ـ وشكوا إليه تجني الجريدة وصاحبها، فأرضاهم بتعطيل الجريدة ومصادرتها. ولم يلبث صاحبها أن أعاد إصدار جريدته باسم جديد، واعتذر الى العرب عما كان منه، كما أعلن عزمه على إصدار جريدة عربية تشيد بذكر العرب وتقرب الهوة بينهم وبين الترك. فأرسل الى معروف الرصافي، وكانت شهرته قد وصلت عاصمة الدولة، يطلب اليه الشخوص الى استانبول للتعاون معه في إصدار هذه الجريدة. ولقي هذا العرض هوى في نفس الرصافي فلبى الدعوة وأسرع الى استانبول، ولكنه وجد أن أحمد جودت لم يكن صادق الرغبة فيما وعد، واحتج بأنه لم يحصل على المعونة اللازمة من شباب الترك لتحقيق هذا المشروع، فعاد الرصافي الى بغداد مارّاً في طريق عودته ببيروت. وهناك احتفت به الأوساط الأدبية حفاوة كبيرة، وأنزله أمين الريحاني ضيفاً في منزله.

ديوان الرصافي

واتفق الرصافي خلال إقامته في بيروت مع (المكتبة الأهلية) على نشر مجموعة من شعره، فصدرت في عام ١٩١٠ بعنوان (ديوان الرصافي)، وكان هذا أول ديوان يصدر له. وقد عني صديقه محيي الدين الخياط بترتيب الديوان وتبويبه وكتب مقدمة له في شاعرية الرصافي، كما عني الشيخ مصطفى

الغلاييني بشرح الفاظه.

قوبل صدور (ديوان الرصافي) باستحسان كبير، واهتمت به الأوساط الأدبية اهتماماً عظيماً، وكُتبت عنه مقالات لا يمكن حصرها، ومن أهمها مقالة للأب لويس شيخو في مجلة (المشرق). كما كتب العلامة الشيخ عبد القادر المغربي مقالة طويلة في تقريظ الرصافي، قال فيما قاله فيها:

«.. وقد كان حظ الشعر العربي في مختلف الأقطار العربية، على قدر حظ هذه الأقطار من إقتباس تلك الحضارة، وارتقاء مَلَكة اللغة العربية في نفوس أهلها، فكانت مصر في طليعة تلك الأقطار، ومن ثمّ نبغ فيها شعراء أدركوا أن الشعر أرفع من أن يخدُم كيس الغني وحسن الثغر، وان الشعراء في الشعب بمنزلة الحُداة في الركب، فهم يوجهون الى الرقي تيار عزيمته، ويذكون في حب الاصلاح الاجتماعي نار حميته.

«ولكن لم يخطر ببالنا أن يقوم في بلاد العراق على تأخرها، بالنسبة الى مصر، شاعر يبذّ النابغين، ويتلقى رواية الشعر الاجتماعي باليمين، أريد به السيد معروفاً الرصافي. فقد تصفحت ديوانه تصفحاً يليق به، وبمكانة صاحبه»...

ثم قال المغربي:

«... أما مطالبه أو أغراضه الشعرية العليا، فهي من أشرف الأغراض وأنبلها، وأعلقها بمصلحة الأمة التي نشر هذا الديوان بين أبنائها.... وربما لم يقم الى اليوم في بلادنا شاعر مثله، أبدع القول في وصف حياتنا الحاضرة ومطالبها العليا إبداعه...

«على أنه إذا شاركه في هذه الأغراض الشعرية الإجتماعية مشارك، فانه في وصف البؤس والبؤساء منقطع القرين، وفي إثارة الشفقة عليهم لم يشبهه أحد من الشعراء المعروفين...»(٦)

العودة الى الآستانة

ولم تطل إقامة الرصافي في بغداد، فقد كانت شهرته في الشعر والصحافة أصبحت واسعة جداً، ولم يلبث أن تلقى برقية من (جمعية أصدقاء العرب) في استانبول تدعوه للعودة اليها لتولي رئاسة تحرير صحيفة (سبيل الرشاد) التي كان يصدرها أحد أعضائها. وكان من أبرز أعضاء تلك الجمعية الشاعر جميل صدقي الزهاوي، والعلامة فهمي المدرس، وكلاهما عراقيان من أصدقائه.

(٦) أورد المغربي جزءاً من هذه المقالة في المقدمة المفصلة التي كتبها بعد ذلك للطبعة الثانية من ديوان الرصافي. وقد صدرت عن (مطبعة المعرض) في بيروت عام ١٩٣١، في مجلد أنيق احتوى على صور فنية بريشة الفنان رافت بحيري. وأعيد نشر تلك المقدمة في الطبعات التالية للديوان.

عاد معروف الرصافي الى استانبول ثانية، وبدأ حياة جديدة. فقد أحب هذه المدينة، وأسره جمالها، وطابت له المعيشة فيها. وهنالك غير زيه فخلع العمامة والجبة، وارتدى الزي الافرنجي، وحلق لحيته، وتزوج من امرأة تركية، وأصبحت له صلات جيدة برجالات الدولة الذين قدروا علمه وفضله، فأصبحت له مكانة إجتماعية مرموقة. وعُرض عليه منصب تدريس اللغة العربية في (المدرسة الملكية الشاهانية) وهي من أرقى كليات العاصمة، وتدريس الخطابة في (مدرسة الواعظين) التي أسستها وزارة الأوقاف، فاضطلع بالعملين الى جانب عمله محرراً لجريدة (سبيل الرشاد).

وقد نُشرت محاضرات الرصافي في مدرسة الواعظين في كتاب بعنوان (نفح الطيب في الخطابة والخطيب).

وأصبحت للرصافي مكانة إجتماعية مرموقة في الدولة العثمانية، وكان موضع التقدير والاحترام بين رجالاتها، حتى أن طلعت باشا، أقوى رجال «الاتحاد والترقي»، ووزير الداخلية في ذلك الحين (ورئيس الوزراء فيما بعد) أخذ يدرس اللغة العربية وآدابها عليه، وكان إذا تحدث عنه ذكره قائلا: «شيخي معروف أفندي الرصافي»، ولم يكن الرصافي في ذلك الوقت قد تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره.

وكان طلعت باشا هو الذي قرّب الرصافي من جمعية الاتحاد والترقي، ثم رشحه لعضوية (مجلس المبعوثان) في عام ١٩١٢، فأصبح نائباً عن لواء المنتفق، وزامل في ذلك المجلس نائباً شاباً من الحجاز اسمه (الشريف فيصل)، ولم يكن ليخطر لأي منهما في ذلك الوقت ببال أن هذا الشاب الحجازي سيتوج بعد أقل من عشر سنوات ملكاً على العراق، وأن الرصافي سيصبح من أشدّ مناوئيه. وكان ذلك المجلس هو المجلس الثاني بعد إعلان الدستور، وقد بقي الرصافي عضواً فيه حتى بعد إنتهاء مدته عام ١٩١٦، إذ لم تجر إنتخابات جديدة وإنما اكتُفي بتمديد مدة المجلس القائم.

العثماني والاتحادي

وقد وقف الرصافي على الدوام موقف التأييد من الدولة العثمانية وسياستها، وساير الاتحاديين، ولكنه لم ينتم الى حزبهم بصورة رسمية على حد قوله[٧]، وان

(٧) الدكتور وميض عمر نظمي، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**، بيروت، ١٩٨٤، ص ٨٠ ـ وقد أشار المؤلف الى ما اطلع عليه من أوراق كامل الجادرجي التي كان فيها ما يدل على أن الرصافي نفى أنه كان منتمياً الى الحزب. كذلك أنظر: مجلة **الثقافة الجديدة**، بغداد، العدد الأول، نيسان ١٩٤٥.

لم يكن ذلك أمراً كبير الدلالة، بعد أن أيّدهم بصراحة تامة واندفاع كبير. واختير رئيساً لتحرير الصحيفة الناطقة باسمهم في بغداد.

ومع ذلك كان الرصافي على اتصال أيضاً بالهيئات والجمعيات العربية التي آزرها فيما كانت تطالب به من منح العرب حقوقهم، بل انتقد سياسة الاتحاديين تجاه العرب منذ سنة ١٩٠٩ على الرغم من علاقاته الوثيقة معهم. ولما قام أعضاء «جمعية الاصلاح العام في ولاية بيروت» مطالبين بإصلاح الأوضاع في ولايتهم، حيّاهم الرصافي بقصيدته «في معرض السيف» ودعا جميع العرب الى الانضمام اليهم، وانتهاز الفرصة لتحقيق أهدافهم، وفيها قال:

ومن يعش وهو مضياع لفرصته ... ذاقَ الشقاءَ وأدمى كفَّه الندمُ
وكلُّ من يدّعي في المجد سابقةً ... وعاشَ غير مجيد فهو متّهم

وفي سنة ١٩١٠ أسقط الاتحاديون وزارة حلمي باشا، وأقاموا وزارة حقي باشا مكانها، فبلغ من جرأة الرصافي أن أرسل الى جريدة (المؤيد) بمصر قصيدة بعنوان «شكوى الى الدستور» انتقد فيها خطة الاتحاديين الذين كانوا يؤلفون الوزارات من غير رجالهم، ويجعلونها تابعة في أعمالها وسياستها لأوامرهم ونواهيهم، وقال مخاطباً الدستور:

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً ... بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدّوا على من حولهم منبع الرزقِ
كأنا لهم شاءٌ فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
أترضى بأن تختصَّ بالحكم معشراً ... وتُصبح للباقين حبراً على ورَق
ولم نكُ ندري لاهتضام حقوقنا ... أنحن من الأحرار أم نحن في رق
وماذا عسى يجدي سُقوط وزارةٍ ... إذا لم تقم أخرى على العدل والحق
مضى كاملٌ من قبل حلمي، وان جرى ... كما جريا حقّي، فمثلهما حقي[٨]

ثم قال محذّراً الاتحاديين من مغبة سياستهم إنهم إذا لم يعترفوا بحقوق العرب، فان العرب سينتزعون حقوقهم بالقوة:

تعالوا الى أمر نساويه بيننا ... وبينكم في الجلّ منه وفي الدِق[٩]
فان يفعلوا هذاً فيا مرحباً بهم ... وإلّا فيا سحقَ المعابد من سَحَق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا ... وشيب وشبان على ضمر بُلق[١٠]

(٨) كامل باشا، وحلمي باشا، هما رئيسا الوزراء اللذين كانا في الحكم قبل حقي باشا، ويريد الرصافي أن حقي باشا إذا سار مسيرتهما فسيكون مصيره مثل مصيرهما.

(٩) الجلّ والدقّ، وكلاهما بالكسر، الجليل والدقيق، أي العظيم والحقير.

(١٠) أيَ على خيل ضمَر بلق، جمع ضامر، وهو القليل اللحم والدقيق، وجمع أبلق، وهو الذي فيه سواد وبياض.

المؤتمر العربي في باريس

وفي حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر العربي العام في باريس، وكان عقده دعماً لكل الجمعيات السياسية في الوطن العربي بفتحه المجال لمناقشة قضايا العرب وحقوقهم ضمن الامبراطورية العثمانية، والتأكيد على ضرورة الاصلاح على أساس اللامركزية[11]. وعلى الرغم من أن الرصافي أيّد مطالب الاصلاحيين في بيروت، فانه حين أطلع على اللائحة التي قدموها للمؤتمر، ورأى أنها تقوم على أساس الأديان قال في قصيدته «ما هكذا»:

راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة ... خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
عدّوا النصارى وعدّوا المسلمين بها ... ونحن نعهدهم طرّا أعاريبا

كما أنه انتقد عقد المؤتمر في باريس، وشبّه الذين حضروه بالحملان تطلب مساعدة الذئب:

قل «للعريسيّ»[12] والأنباء شائعة ... والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد في باريس مؤتمراً ... ما كنت فيه برأي القوم مندوبا
وهل تعمد «حقي العظم»[13] فعلته ... لما نمى خبراً «للطان» مكذوبا
إذ راح يستنجد الافرنج منتصفاً ... كأنه حمل يستنجد الذيبا

وكأن الرصافي، ببعد نظره، كان يقرأ الغيب يوم نظم هذه القصيدة في سنة ١٩١٣ قبل قيام الحرب العالمية الأولى، واقتسام الدول الغربية للأقطار العربية وتنكرها لوعودها لهم:

لو كان في غير باريز تألّبهم ... ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

(١١) أنظر دراسة عن المؤتمر العربي في باريس في كتاب **(وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣، والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به)** تقديم ودراسة وجيه كوثراني، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠.

(١٢) عبد الغني العريسي (١٨٩١ ـ ١٩١٦) أحد منظمي المؤتمر العربي في باريس وسكرتيره (أما الآخرون فهم عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني وجميل مردم وتوفيق فايد) وهو من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا في بيروت في سنة ١٩١٦، ولد وتعلم في بيروت ودرس الصحافة في باريس واشترك مع الأمير عارف الشهابي في إصدار جريدة (المفيد) في بيروت ثم في دمشق. وقد طلبته الحكومة فهرب الى البادية مع الشهابي وآخرين وقبض عليهم في القطار وهم يحاولون السفر الى الحجاز وسيقوا الى الديوان العرفي في «عاليه» وحكم عليهم بالاعدام. وكان العريسي كاتباً جميل الأسلوب، ووطنياً جريئاً اشترك في أكثر الحركات القومية في ذلك العهد.

(١٣) أرسل «حقي العظم» الذي كان يقيم آنذاك بمصر، ببرقية الى جريدة «الطان» الفرنسية، يطلب فيها الى الحكومة الفرنسية ان تتدخل في أمر سورية.

لكن باريز ما زالت مطامعها ... ترنو الى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها ... تلقي العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم ... جيش يدك من الشام الأهاضيبا[14]

ولما نشرت هذه القصيدة التي انتقد بها الرصافي دعاة الإصلاح واللامركزيين ضج لها ضجيجهم، وأخذت صحفهم تشنع عليه وترميه بشتى التهم. فبلغه الأمر في الاستانة، وأزعجه كثيراً وأرقه، فكتب قصيدته المعنونة «في ليلة نابغية» وقد جاء فيها:

برئت للعرب العرباء من فئة ... ينمون للعرب الا أنهم سقط
أين المكارم ان هم أصبحوا عربا ... فانها في طباع العرب تشترط
ان يغمطوني لأني جئت أنهضهم ... فأي مستنهض ذي نجدة غمطوا

وفي القصيدة هجاء مقذع لمنتقديه:

هم كالضفادع فاسمعهم إذا رطنوا ... فما هنالك الاّ اللغو واللغط
يستنثرون صغاراً من معاطسهم ... ولا يبالون ان قالوا وان ضرطوا
العار يرحل معهم أينما رحلوا ... والخزي يهبط معهم أينما هبطوا
الخلق كالخط لا تقرأ لئامهم ... وأشطب عليهم بنعل أنهم غلط

الحرب العالمية الأولى

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤، ودخلتها الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا، دعا الرصافي الى الجهاد دفاعاً عن «الوطن»:

يا قوم إن العدا قد هاجموا الوطنا ... فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدوّ الله كلّ فتى ... ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا

وطالب بتحرير مصر وعدن من الانكليز:

عار على المسلمين اليوم أنهم ... لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عدنا

والتفت الرصافي الى مصر، وهاجم السلطان (حسين كامل)، ووزيره (حسين رشدي)، لمشايعتهما الانكليز، وعدم وقوفهما الى جانب الدولة العثمانية باعلان الجهاد، فقال:

قل للحسينين في مصر رويدكما ... قد خنتما الله والاسلام والوطنا

ولم ينس الرصافي وطنه العراق، وكانت القوات البريطانية، على وشك

(١٤) احتل الجيش الفرنسي سورية بعد ذلك كما هو معروف، كما قصف مدينة دمشق بالمدافع في سنة ١٩٤٥.

النزول في أراضيه:

وربّ مستصحب لي قال يخبرني ... ان العدو الى أرض العراق دنا
فقلت: دع عنك هذا، إنه خبر ... سواه يبعث في أحشائي الشجنا
إنْ صَحَّ أن العدوَّ اليوم مقترب ... الى العراق فقد أكدى وقد أفنا

الثورة العربية

وفي سنة ١٩١٦ قامت الثورة العربية بتحالف الشريف حسين، شريف مكة وأميرها مع الحكومة البريطانية، ضد الدولة العثمانية، وكان قيامها مبعث احراج كبير للرصافي.

ان أحداث الثورة وظروفها وملابساتها معروفة، وتاريخها مدون في دراسات عديدة، ويعنينا منها هنا موقف الرصافي منها، وهو لم يكن موقف التأييد، وكان لهذا الموقف أثره البعيد في اتجاه الرصافي السياسي، وفي جميع مواقفه السياسية التالية، بل وفي مستقبل حياته كلها.

وبينما كان معظم الشعراء العرب الوطنيين يرحبون بالثورة، ويرون فيها طريقاً لاستقلال الأمة العربية وفاتحة خير لها ـ مهما كانت نتائج الثورة فيما بعد ـ وفي الوقت الذي رحب فيه بالثورة وبالشريف حسين شاعر مثل فؤاد الخطيب بقصيدته التي اشتهرت كثيراً:

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما

وقف الرصافي منها موقف المعارض، وشجب القيام على الدولة العثمانية في وقت محنتها، وأعتبر ذلك خيانة للدولة الاسلامية، واستعانة بالأجانب عليها، وهجا الشريف حسين هجاء مراً، فقال ولعله كان يعارض قصيدة الخطيب:

دع الحسينين في مصر وبغيهما ... ففي الحجاز حسين ثالث لهما
هذان قد أخجل الأهرامَ بغيُهما ... وبغيُ ذاك أخزى البيتَ والحرما

وكان الرصافي على الدوام لا يطمئن الى الأجانب، ويرتاب في مطامع الغرب، ولذلك لم يرتح لعقد المؤتمر العربي في باريس، وسخر من مدنية الغرب قائلا:

الى الله نشكو الأمر من مدنيّة ... تعارض في أوصافها الكذب والصدق
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي ... بأشياء من بطلانها ضحك الحقّ
فهم منعوا رقّ الأسير وانما ... أجازوا لهم أن يشمل الأممَ الرق

ولما سقطت بغداد بيد الانكليز في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ قال الرصافي في قصيدة عنوانها «نواح دجلة» مخاطباً الأتراك آسفاً على خروجهم من بغداد ومعاتباً:

كيف يغضون عن اغاثة واد ... زانه من ودادهم أوضاح
فعليه من فخر عثمان تاج ... وله راية الهلال وشاح
أنا باق على الوفاء وان كا ... نت بقلبي ممن أحب جراح
فاليهم ومنهم اليوم أشكو ... بلغيهم شكايتي يا رياح

وأخيراً انتهت الحرب بانـدحار ألمانيا وحليفتها تركيا، ووقّعت اتفاقية الهدنة، وكانت قوات الثورة العربية قد وصلت الى دمشق بقيادة (الأمير) فيصل بن الحسين في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، ثم قامت فيها الحكومة العربية التي دامت أقل من سنتين كان فيصل خلال القسم الأعظم منها غائباً في أوروبا لتمثيل والده في مؤتمر الصلح في باريس، ومفاوضة البريطانيين بشأن مستقبل البلاد العربية، ومطالبة الحلفاء بالوفاء بوعودهم التي قطعوها للعرب في ساعة الضيق، ثم نكثوها بعد انتصارهم في الحرب.

ووجد الرصافي نفسه في الآستانة كالطائر الغريب، فلا هو تركي لكي يبقى فيها ويندمج بمجتمعها وسياستها وتطورات الأحوال فيها بعد الحرب، ولا هو ممن أيَّد الثورة العربية لينضم الى رفاقه فيها ويجني معهم ثمارها، طيبة كانت أم مرة. ومع ذلك، فقد قرر السفر الى دمشق، حيث قامت حكومة عربية مستقلة. وليس من المستغرب ان يقابل الرصافي في دمشق بالأعراض والاهمال بعد وقوفه ضد الثورة، وهجائه زعيمها. وكان قبل ذلك قد شجب المؤتمر العربي في باريس وهاجمه، وسكت عن مظالم جمال باشا في سورية واعدام شهداء العرب في حين أن معظم الشعراء العرب حيوا أولئك الشهداء ورثوهم أبلغ الرثاء، ووقف مع الاتحاديين حتى اللحظة الأخيرة.

في القدس

وقد حار معروف الرصافي في أمره، ووجد أبواب الرزق مسدودة في وجهه، بعد أن كان في العاصمة العثمانية موضع الرعاية والتقدير، عضواً لامعاً في البرلمان، يتقاضى راتباً محترماً، الى جانب ما يدخله من التعليم في المدرسة الملكية ومدرسة الوعاظ وغيرهما. ولم يكن بوسعه أن يعود الى الاستانة بعد التحاقه بفيصل في سورية، ولا أن يعود الى العراق، تحت الاحتلال البريطاني، وهو الذي لم يكتم عداءه للانكليز، وكان موقفه منهم معروفاً، حتى قيض الله له وظيفة للتدريس في دار المعلمين بالقدس، وتوسط له فيها محمد كرد علي بك الذي كان يقدر علمه ويعجب بشعره، فغادر دمشق مودعاً اياها بقصيدة عنوانها «بعد براح الشام» صورّ فيها همومه وهواجسه وقد ختمها قائلا:

أخزى البلاد مفاسداً بلد به   مقت الأديب وأكرم العرّيض

ووجد الرصافي في القدس شيئاً من الأمن والراحة، وكان موضع التقدير والتكريم في مجتمعه واحتفى به رجالاتها وأدباؤها، وكثيراً ما كان يدعى الى المآدب والاحتفالات ويطلب اليه انشاد الشعر فيها، وهنالك لقي بعض العوض عن الإعراض الذي لقيه في دمشق، وفي ذلك قال:

أصبحت في القدس في أمن وفي دعة   من بعد أن كدت في الشام أعتفد

ولو نظرنا الى كلمة «أعتفد» في قواميس اللغة لوجدنا أن معناها: «دخل غرفته، وأغلق الباب على نفسه، ولازمها حتى الموت جوعاً وكمدا». أن التقاط الرصافي هذه الكلمة، ووضعها في المكان المناسب للتعبير بكلمة واحدة عن هذه المعاني جميعاً، لمن الأدلة الرائعة على مدى امتلاكه ناصية اللغة العربية. وفي شعر الرصافي أمثلة كثيرة لذلك.

وأقام الرصافي في القدس زهاء سنتين سقطت خلالها الحكومة العربية في سورية، واحتلت القوات الفرنسية دمشق بقيادة الجنرال غورو، وغادرها الملك فيصل الى أوروبا حيث كانت اتصالاته ستنتهي بترشيحه لعرش العراق.

الرصافي والملك فيصل

وقد توالت الأحداث بعد ذلك، وكان هنالك عدد من المرشحين العراقيين للعرش، في مقدمتهم السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد، ورئيس الوزراء في الحكومة المؤقتة، والسيد طالب (باشا) النقيب وزير الداخلية فيها، والشيخ خزعل، أمير المحمّرة، وهادي باشا العمري، من الأسرة العمرية المعروفة في الموصل ومن الشخصيات العسكرية العراقية البارزة في العهد العثماني.

ولما شاع نبأ اعتزام بريطانيا ترشيح الأمير فيصل ازداد نشاط السيد عبد الرحمن الكيلاني والسيد طالب النقيب في الدعوة لنفسيهما، ومعارضة ترشيح فيصل، رافعين شعار «العراق للعراقيين». واتفق النقيبان على اصدار جريدة تدعو لهما وتعارض اختيار فيصل، وقررا استدعاء معروف الرصافي ليتولى رئاسة تحريرها لما يتمتع به من شهرة واسعة، وما له من تاثير كبير على أفكار الناس. وتلقى الرصافي وهو في القدس برقية تدعوه للحضور الى بغداد فلبى الدعوة وحضر تراوده الآمال العريضة في تحقيق بعض أمانيه في ظل الدولة الجديدة. وكان فيصل في ذلك الوقت في طريقه الى العراق.

وتمكن السير برسي كوكس المفوض المدني في العراق ـ الذي كان بمثابة رئيس

الدولة ـ بدهائه ونفوذه من إقناع السيد عبد الرحمن النقيب بالعدول عن ترشيح نفسه، كما أنه تخلص من السيد طالب بإبعاده الى الهند وسيلان، وتوّج فيصل ملكاً على العراق، ولم يتحقق مشروع الجريدة طبعاً، ووجد الرصافي نفسه مرة أخرى في الجانب الخاسر.

وحاول الرصافي استرضاء الملك فيصل، وسعى الى الترحيب به في المأدبة التي أقامها له السيد عبد الرحمن النقيب بعيد وصوله الى بغداد في ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٢١، فأنشد قائلا:

مدّ النقيب الى الأمير   يد المعاضد والنصير
فليخز كل مشاغب   في القوم يلهج بالشرور
وليحيَ مولانا النقيب   حياة مولانا الأمير

ولكن الملك فيصل بقى ناقماً على الرصافي لا ينسى مواقفه السابقة من الثورة العربية، ولا هجاءه لوالده. وقد حاول أصدقاء الرصافي إزالة سخط الملك فيصل عليه دون جدوى، واقنعوا الرصافي بكتابة رسالة اليه يعرض فيها ولاءه، فبعث اليه في ٧ تموز (يوليو) ١٩٢٢ رسالة يوضح له فيها حقيقة موقفه أو يحاول تبريره، وقد جاء فيها:

«... وقلت تلك القصيدة التي أوجبت غضبكم عليّ الى يومنا هذا مع أنها لم تكن صادرة عن حزازات في النفس وانما كانت عن اجتهاد خاص واعتقاد. فلما جئت الى دمشق أيام حكومتكم علمت أن غضبكم من أجل هذه القصيدة لم يفتر كما أخبرني بعض أصحابي نقلاً عن نوري السعيد، مع أن كثيراً من العلماء والأدباء في سورية كانوا قد شهروا أقلامهم أثناء الحرب بالطعن في جلالة والدكم وقد شملتموهم بأنظار الصفح والعفو جميعاً، ولا أدري ما الذي استوجب استثنائي منهم واستمرار غضبكم عليّ من دونهم؟؟».

ولما تجاهل فيصل هذه الرسالة إشتدت نقمة الرصافي عليه وزاد من اندفاعه في معارضة فيصل وتقريعه وهجائه في كل مناسبة. وقد اتفق في ذلك العام أن تسربت مياه دجلة الى البناء الذي كان فيصل قد اتخذه بلاطاً له، فتداعت بعض أبنيته وجدرانه، فنظم الرصافي في هذه المناسبة أقذع هجاء له:

أبلاط ليت شعري أم ملاط   أم مليك «بالمخانيث» محاط
غضب الله على ساكنه   فتداعى ساقطاً ذاك البلاط

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة لم تنتشر بطبيعة الحال، فقد تناقلتها الألسنة في بغداد وتهامس بها الناس، وأصبحت معروفة بدرجة غريبة، حتى قيل أن مدير الشرطة العام فصل من وظيفته إذ رُوي عنه أنه كان يرددها في

بعض المجالس.(١٥)

وقد اضطرت الحاجة الرصافي الى العمل في الوظائف الحكومية، والى قبول وظيفة شكلية بسيطة كانت دون مكانته وشهرته، وهي وظيفة نائب رئيس لجنة الترجمة والتعريب في وزارة المعارف. وقد زاد في سخط الرصافي أنه عين نائباً لرئيس اللجنة في الوقت الذي كان فيه منصب رئيس اللجنة شاغراً، ولكنه قضى في هذا العمل نحو سنة ونصف السنة.

الهجرة الى بيروت

وفي أواخر تلك السنة سافر الرصافي الى استانبول ومنها عاد الى بيروت، وقرر الاقامة فيها، ونشر قصيدة طويلة تحمل سخطه وثورته، وعنوانها «بعد النزوح»، قال فيها:

هي المواطن أُدنيها فتقصيني   مثل الحوادث أبلوها وتبليني
قد طال شكواي من دهر أكابده   أما أصادفُ حرّا فيه يشكيني؟

ومرة أخرى عرّض الرصافي بالملك فيصل قائلا:

أنا ابن دجلة معروفاً بها أدبي   وإن يكُ الماء منها ليس يرويني
قد كنت بلبلَها الغرّيد أنشدُها   أشجى الأناشيد في أشجى التلاحين

***

فبينما كنت فيها صادحاً طرباً   أستنشق الطيبَ من نفح الرياحين
اذ حلّ فيها غُراب كان يوحشنَي   وكان تَنعابُهُ بالبين يؤذيني

***

ويل لبغداد مما سوف تذكره   عنّي وعنها الليالي في الدواوين
أفي المروءة أن يعتزّ جاهلها   وأن أكون بها في قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم   وأن أُسامَ بعيشي جدع عرنيني(١٦)
عاهدت نفسي والأيام شاهدة   ألاّ أقرّ على جَوْر السلاطين
ولا أصادق كذّاباً ولو ملكا   ولا أخالط اخوان الشياطين

***

ما كنت أحسب بغداد تُحلّئُني   عن ماء دجلتها يوماً وتظميني(١٧)

(١٥) خيري العمري «سر خصومة الرصافي للملك فيصل» مجلة (ألف باء)، العدد ٥٤٦، السنة ١١، بغداد في ١٤ آذار ١٩٧٩، ص ٣٠ ـ ٣١.

(١٦) جدع عرنيني: رغم أنفي

(١٧) تُحلّئني: تمنعني وتطردني

حتى تقلّد فيها الأمر زِعنفةٌ   من الأناس بأخلاق السراحين(١٨)

ثم قال:

علام أمكث في بغداد مصطبراً   على الضراعة في بحبوحة الهون
لأجعلنّ الى بيروت منتسبي   لعلّ بيروت بعدَ اليوم تُؤويني

***

وأشار الرصافي في هذه القصيدة أيضاً الى ما لقيه في دمشق في عهد الملك فيصل من عسر وهوان، وما وجده في القدس من تقدير وتكريم، وذكر ثلاثة من أعلام الأدب في فلسطين وهم محمد اسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، وعادل جبر، أكرموا وفادته ورعوه، ونوّه عنهم بأبيات جميلة الاشارة بليغة الاستعارة، اذ قال:

قد كان في الشام للأيام مذ زمنٍ   ذئبٌ محته الليالي في فلسطين
إذ كان فيها النشاشيبيّ يُسعفني   وكنت فيها خليلاً للسكاكينيَ
وكان فيها ابن جبر لا يقصّر في   جبر انكسار غريب الدار محزون
إن كان لي في القدس أصحاب غطارفة   فكم ببيروت منْ غرّ ميامين

***

ومع ذلك، فقد عجز الرصافي عن البقاء في بيروت بلا عمل ولا مورد، وسمع هناك باعتزام السلطات في العراق اجراء انتخابات للمجلس التأسيسي الذي كانت مهمته اقرار القانون الأساسي (الدستور) وقانون انتخاب مجلس النواب، والمعاهدة العراقية ـ البريطانية، وفكر في ترشيح نفسه لعضوية ذلك المجلس وكان يجد نفسه مؤهلاً لذلك بما لديه من خبرة في (مجلس المبعوثان) العثماني. وكانت مغادرة الرصافي للعراق، والقصيدة التي قالها على أثرها، قد أحدثا أثراً سيئا في العراق وأحرجا حكومته وهي في بداية عهدها. فلما عاد رحبت به الصحافة العراقية والأوساط الأدبية في بغداد، وأقيمت له حفلة تكريمية ألقى فيها قصيدة أخرى من قصائده الجيدة، وكان عنوانها «الى أبناء الوطن» ومطلعها:

سِرْ في حياتك سيرَ نابهْ   ولُم الزمانَ ولا تُحابه
وإذا حللت بموطن   فأجعَل محلك في هضابه

وقال فيها عن اغترابه وعودته:

آب المسافر للديار   على اضطرار في إيابه
لو كان يجنح للأيا   ب لما تعجل في ذهابه

(١٨) السراحين: جمع سرحان وهو الذئب

قـد كـان يمـرح في التغـرّ ... ب بالحفـاوة من صحابه
لا تعجبنّ لخـامـل ... لبس النباهـةَ في اغترابه
فالسيف أحسن ما يكو ... ن اذا تجرّد من قرابه

وفي هذه القصيدة دعا الناس الى المشاركة في انتخابات المجلس التأسيسي، وكان هنالك تيار قوي لمقاطعتها بسبب تدخل الحكومة فيها وسيطرة الانكليز على البلاد، وقد صدرت فتاوى دينية عديدة بمقاطعتها:(١٩)

لا بدّ للوطن العزيز ... من المسكّن لاضطرابه
من مجلس للشعب ينظر ... بالتأمل في مآبه
وينوب عن أبنائه ... ان صادقوه على منابه
حتى نرى أمر البلاد ... به يعود الى نصابه
أبهت حكومتنا له ... والشعب ليس له بآبه

واستقال الرصافي من وظيفته في وزارة المعارف وكان من أوائل من رشحوا أنفسهم للانتخابات، وأذاع بياناً انتخابياً أحدث دوياً كبيراً في الأوساط العراقية على الرغم من أنه كان فيه تراجع كبير في مواقفه من الانكليز ومن الوضع القائم في العراق. ولعله كان موقفاً «تكتيكياً» أراد به أن يتفادى مقاومة السلطات لانتخابه. وفي الوقت نفسه ولج ميدان الصحافة مرة أخرى، فأصدر جريدة اسمها (الأمل)(٢٠) واتخذ فيما نشره من مقالات ـ سواء أكانت بقلمه أم بأقلام أخرى ـ نفس الموقف في مهادنة الانكليز ومصانعة الحكومة.

وفي سنة ١٩٢٣ أختير الرصافي عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق.

وقد ظهرت نتائج الانتخابات للمجلس التأسيسي في آذار سنة ١٩٢٤ ولكن الرصافي لم ينجح فيها.

زيارة امين الريحاني الى العراق

في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢ زار العراق الأديب الشهير أمين الريحاني، بدعوة من الملك فيصل، فأحدث قدومه في البلاد حركة أدبية نشيطة، وأقيمت لتكريمه حفلات عديدة. وفي الحفلة التي أقامها (المعهد العلمي) ببغداد ألقى الرصافي قصيدة من أروع قصائده، بل من أروع الشعر السياسي العربي في العصر

(١٩) أنظر دراسة عن المجلس التأسيسي في كتاب الدكتور محمد مظفر الأدهمي، **المجلس التأسيسي العراقي ـ دراسة تاريخية سياسية**، بغداد، ١٩٧٦.

(٢٠) صدر العدد الأول من جريدة (الأمل) للرصافي في أول تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٣، وصدر منها ثمانية وستون عدداً توقفت بعدها عن الصدور.

الحديث. وفي هذه القصيدة سجّل ألمه لأوضاع العراق، وكأنه كان يتحدث عن بعض البلاد العربية في يومنا هذا. وهي في ٤٧ بيتاً افتتحها قائلاً:

ان العـراق بعرضه وبطوله ... وبـرافديه وباسقات نخيله
يهتـزّ مبتهجـاً بمقـدم ضيفـه ... ويبش مبتسماً بوجه نزيله

ثم قال:

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ... ما فيه من غرر العلى وحجوله
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً ... والقوم محتربون بعد أفوله

***

فلقد عفا المجد القديم بأرضه ... وعليه جرّ الدهر ذيل خموله
وإذا نظرت الى قلوب رجاله ... فانظر حديد الطرف غير كليله
تجد الرجال قلوبها شتى الهوى ... مدّ الشقاق بها حبالة غوله
متناكرين لدى الخطوب تناكراً ... يعيا لسان الشعر عن تمثيله
فالجار ليس بآمن من جاره ... والخل ليس بواثق بخليله
والدين فيه يقول ذو قرآنه ... قولا يحاذر منه ذو انجيله

***

أأمين لا تغضب عليّ فانني ... لا أدّعي شيئاً بغير دليله
من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عنـ ... ـد جبانه، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده، والعلم عنـ ... ـد غريبه، والحكم عند دخيله
وقد استبدّ قليله بكثيره ... ظلماً وذلّ كثيره لقليله
إني إذا جدّ المقال بموقف ... فضّلت مجمله على تفصيله
وإذا المخاطب كان مثلك واعياً ... أغنى اختصارُ القول عن تطويله

وقد أحدثت هذه القصيدة ضجة كبيرة في بغداد، ويقال انها لمّا بلغت أسماع الملك فيصل انزعج لها كثيراً، وخاصة لعبارة (الحكم عند دخيله) التي وجدها تعريضاً به واشارة الى كونه غير عراقي، ولكن أصدقاء الرصافي حاولوا اقناعه بأنه يقصد (الانكليز).

العودة الى الوظيفة

بعد فشل الرصافي في الحصول على عضوية المجلس التأسيسي واغلاق جريدته، أعيد الى الوظيفة الحكومية في ١١ تموز (يوليو)، فعين مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف، وفي ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٧ عيّن استاذاً للغة

العربية وآدابها في دار المعلمين العالية ببغداد، واستقال من الوظيفة في السنة التالية اذ رشّح لعضوية مجلس النواب.

وكانت سنوات العشرينات وأوائل الثلاثينات من أخصب فترات حياة الرصافي الأدبية وأغزرها بالانتاج الشعري. وقد عاد الرصافي الى المعارضة مرة بعد مرة، ووقف مواقفه السابقة في مهاجمة الانتداب، والحكومة القائمة في ظلها، واندفع في معارضته بجرأة عجيبة، وباندفاع شديد.

ومن جملة ما نظمه في تلك الفترة قصيدة عنوانها «الحرية في سياسة المستعمرين» ذهبت مذهب الأمثال في العراق، وقد نشرت في جريدة (المفيد) الصادرة في بغداد بتاريخ ١٧ آب (اغسطس) سنة ١٩٣٢، وهي التي قال فيها:

يا قوم لا تتكلموا ... ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ... ما فاز إلا النوّم

وفي تلك الفترة أيضاً نظم قصيدة شهيرة أخرى عنوانها «حكومة الانتداب» تجاوز فيها كل حدود الجراة، بل ودعا الناس الى اعتناق (البلشفية) اذا كانت فيها نجاتهم من مطامع الانكليز، وقد نظم هذه القصيدة في سنة ١٩٣٠ حينما كان نوري السعيد يحاول تصديق المعاهدة العراقية ـ البريطانية:

أنا بالحكومة والسياسة أعرفُ ... أألام في تفنيدها وأعنفُ
سأقول فيها ما أقول ولم أخف ... من أن يقولوا شاعر متطرف
هذي حكومتنا وكل شموخها ... كذب، وكل صنيعها متكلف

ثم عرّض بالدولة، والدستور، والعلم، والمجلس، والوزارة، بأبيات اكتسبت شهرة واسعة، ولا يزال الناس في العراق يحفظونها، ويرددونها، والمؤرخون يستشهدون بها في وصف الوضع السياسي في عهد الانتداب، وقال فيها:

علمٌ ودستورٌ ومجلس أمةٍ ... كلٌ عن المعنى الصحيح محرّف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها ... أما معانيها فليست تعرف

ثم قال:

للانكليز مطامع ببلادكم ... لا تنتهي إلا بأن تتبلشفوا

ماذا كان يريد؟

هاجم الرصافي الملك فيصل، وهاجم الدولة، وهاجم الانتداب البريطاني، ثم هادنهم، فماذا كان يريد؟

الآن وقد ابتعدت أحداث ذلك العهد بدرجة أصبح من الممكن معها الحكم

عليها بمزيد من الموضوعية، ويبدو أن الرصافي كان يطمح الى منصب مهم في الدولة، وعلى الرغم من استحالة التكهن في الأمور التاريخية بأي قدر من الدقة، فمن المحتمل على الأقل ان الرصافي لم يكن يتخذ مواقفه العنيفة التي اتخذها من الحكومة ومن فيصل لو حققا له بعض ما أراد.

ويخيل لكاتب هذه السطور، أنه كان يطمح الى الوزارة، والى وزارة المعارف على وجه التحديد. وهو يستند في هذا الرأي على الحدس والتخمين، وعلى ما يمكن ان يُستشف بين سطور الرصافي وتلميحاته غير المباشرة، بل المباشرة أيضاً في بعض الأحيان.

وكان الرصافي يرى أنه أحق بهذا المنصب من الذين كان الملك فيصل يعهد به اليهم. ومعظمهم من رجال الدين أو التجار الذين لا علاقة لهم بشؤون التربية والتعليم في فترة كانت فترة تأسيس لنظام التعليم في البلاد. وقد كان اختيار فيصل لوزراء المعارف خاضعاً لاعتبارات سياسية محلية وليس الاختصاص الفني.[٢١]

واننا نجد الرصافي يكثر من الاشارة الى الوزارة، والوزراء، والمناصب، بما يدل دلالة قوية على ما كان يخامر نفسه من غضب لتجاهله وتفضيل سواه ممن يراهم دونه بمراحل. مخاطباً رجال الحكومة ببغداد سنة ١٩٢٧:

يا مبعديّ بظلم عن مناصبهم ... وقاطعين الى ما أبتغي طرقي

وخاطب الوزراء في قصيدة «حكومة الانتداب»:

هذي كراسي الوزارة تحتكم ... كادت لفرط حيائها تتقصّف
أنتم عليها والأجانب فوقكم ... كل بسلطته عليكم مشرفُ

وقال في قصيدة أخرى عنوانها «الوزارة المذنبة»:

كم وزير هو كالوز ... ر على ظهر الوزارة
ووزيرٍ ملحق كالـ ... ذيل في عجز حماره
يأخذُ الراتب إمّا ... بلغ الشهر سراره[٢٢]

بل أنه نظم مقطوعة عنوانها «وزراء المعارف عندنا» جاء فيها:

---

(٢١) كان الملك فيصل يرى في وجود الاستاذ ساطع الحصري في منصبه الدائم مديراً عاماً للمعارف، وهو الخبير الكبير في شؤون التربية والتعليم والاختصاصي ذو الثقافة العصرية الشاملة، ضمانة لتأسيس نظام التعليم على أسس قويمة. وكان الملك فيصل يسنده على الدوام في أي خلاف ينشب بينه وبين الوزراء الذين تولوا هذه الوزارة بسبب احترامه وتقديره لعلمه ومعرفته الواسعة.

(٢٢) السرار: الظلام الذي لا يظهر فيه القمر ويكون في المحاق، كناية عن نهاية الشهر وحلول موعد دفع الرواتب.

ويحَ المعارفِ لا يستوزرونَ لها   الا الذينَ لوزر الجهل قد وزروا
فأي حرمة عَلم هم قد انتهكوا   بذا، وأي زمام للعلى خفروا
هبهم قد احتقرونا في مواطننا   سياسة، فعلام العلم يحتقر؟

وكان الرصافي يهاجم التدخل البريطاني في البلاد في كل مناسبة، ويشهّر بالحكومة والوزراء لخضوعهم لذلك التدخل، وقال في الوزارة:

ان الوزارة ـ لا أبا لك ـ عندنا   ثوب يفصّل في معامل لندنا
لا يرتديه سوى امرىء أضحى له   طبعا وداد الانكليز وديدنا

وقال في قصيدة أخرى:

سل الانكليزي الذي لم يزل له   بدست وزير الداخلية مقعد
أأنت وزير أم عميد وزارة   نراك اليها كل يوم تردّد
فها أنت ملقاة اليك أمورنا   تحل لنا ما شئت منها وتعقد

وربما كان أقذع ما قاله في الوزراء والمستشارين البريطانيين هذان البيتان اللذان جريا على ألسنة الناس في العراق. على الرغم من التشبيه القبيح الذي احتوياه، أو بسببه:

ألا بلّغوا عني الوزير مقالةً   له بينها لو كان يخجل توبيخُ
أراك بحمام الوزارة نورةً   وأما جناب المستشار فزرنيخ(٢٣)

وعلى الرغم من أن الملك فيصل تجاهل رسالة الرصافي الأولى اليه، فانه بعد ذلك حاول استرضاءه وكسبه الى جانبه أكثر من مرة، فقد كان فيصل سياسياً حاذقاً مرناً ورجل دولة لا يدع الأحقاد القديمة تتحكم في مواقفه وعلاقاته مع الناس، وقد بادر الى مصالحة أشخاص ورؤساء دول (مثل عبد العزيز آل سعود، ورضا شاه بهلوي، ومصطفى كمال) حين وجد في مصالحتهم تحقيقا لمصلحة أو تنفيذاً لسياسة.

ولكن طموح الرصافي المفرط، أو بالأصح شعوره العميق بالغبن، وحالته النفسية البالغة الحساسية كانت تجعله يشعر بوخزة جديدة فينقلب على الملك والدولة كلما رأى من هم دونه بكثير يتبوأون مناصب عالية، وينالون حظوة الملك، ولكن ذلك أفقده ثقة الملك، وجعله يعرض عنه. وكان من أبيات الرصافي الشهيرة في هجاء الملك فيصل قوله:

(٢٣) الاشارة هنا الى مسحوق كان يستعمل في حمامات بغداد القديمة لازالة الشعر، وهذا مزيج من الزرنيخ الذي يزيل الشعر بشدة مفعوله، والنورة التي تمزج به لتخفيف حدته، والتشبيه هو أن المستشار يقوم بدور الزرنيخ، أي أنه يؤلف العنصر الفعال والوزير بمثابة النورة التي لا مفعول لها. وهنالك قصيدة أخرى بهذا المعنى للشيخ باقر الشبيبي قال فيها:

المستشار هو الذي شرب الطلا   فعلام يا هذا الوزير تعربدُ

لنا ملك تأبى عصابة رأسه   لها غير سيف التيمزيين عاصبا
وليس لنا من أمره غير أنه   يعدد أياماً ويقبض راتبا

ويقال أن الملك فيصل، الذي كان في عهد الانتداب يعاني الأمرين بين ضغط المندوب السامي، ومطالب الوطنيين، صادف أن قابل الرصافي في احدى المناسبات، فقال له معاتباً» أما تزال تعتقد أنني أعدد أياماً وأقبض راتباً؟».

فأجابه الرصافي: «أرجو أن لا تكون كذلك».

في مجلس النواب

وكان للرصافي بين رجال الدولة أصدقاؤه المعجبون بعلمه وأدبه، المقدرون لفضله، ومنهم عبد المحسن السعدون الذي حاول التقريب بينه وبين الملك فيصل، وقد نجح السعدون عند تأليف وزارته الثانية في مطلع عام ١٩٢٨ في إقناع الملك فيصل بالموافقة على ترشيح الرصافي لعضوية مجلس النواب، وفي أيار (مايو) ١٩٢٨ انتخب الرصافي نائباً عن لواء العمارة، ثم نائباً عن بغداد في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤، ثم نائباً عن لواء الدليم في آب (أغسطس) ١٩٣٥ وشباط (فبراير) ١٩٣٧، وكانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٧ الى شباط سنة ١٩٣٩.

وكانت تلك الفترة من أسعد فترات حياته، فقد شعر خلالها أنه بدأ ينال شيئاً مما يستحقه، وأن أحواله قد تتحسن وأبناء وطنه مدركون ما لحقه من ضيم وجحود، ولعل النيابة تكون خطوة للوصول الى منصب الوزارة.

وفي سنة ١٩٣٩ جاء الى بغداد المستر كراين، وهو أحد كبار الأثرياء الاميركيين، وكان رجلاً متحرراً يجاهر بحب العرب والدفاع عن حقوقهم والمطالبة باستقلالهم. واحتفلت به الأوساط الوطنية والأحزاب السياسية وأقيمت لتكريمه حفلات ومآدب عديدة اتخذت مناسبات لالقاء خطب سياسية لعرض مطالب الشعب في الاستقلال والتحرر من الانتداب البريطاني.

وكان الرصافي عضواً في المجلس النيابي، ومع ذلك فلمّا أقام الحزب الوطني حفلته الكبرى لتكريم المستر كراين، ألقى الرصافي في الحفلة قصيدة رائعة رسم فيها صورة لحالة الشرق بصورة عامة، والعراق بصورة خاصة وموقف الانكليز وحقيقة الحكم في العراق وكان مطلعها:

يا محب الشرق أهلا   بك يا مستر كراين

وقد افتتحها بالاشارة الى أوضاع الشرق بصورة عامة قائلاً:

جئت يا مستر كراين   فأنظر للشرق وعاين
فهو للغرب أسير   أسر مديون لدائن

ان هذا الشرق والغر ... ب لمغبون وغابن
فترى الشرق تجاه الغر ... ب يسعى سعي ماهن
وترى الغرب عليه ... واقفاً موقف خائن
منكراً منه المزايا ... موجداً فيه المطاعن
غاصباً منه المواني ... شاحناً فيه السفائن
حافراً فيه المعادن ... نابشاً فيه الدفائن
فهو يمتص دماء الشر ... ق من كل الأماكن
باذراً من كيده في ... أهله بذر الضغائن
حاكماً فيه على أهلـ ... ـه حكم المتهاون
جاعلاً في رجله قيـ ... ـد الونى والقيد شائن
فترى الشرق لهذا ... ماشياً مشية واهن
أفهذي يا محبَّ الشـ ... ـرق أفعالُ المهادن
أين ما قد قاله ولسـ ... ـن يا مستر كراين؟(٢٤)

ثم انتقل الى الحالة في العراق قائلاً:

واذا تسأل عما ... هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقيّ الضـ ... ـرع غربي الملابن(٢٥)
وطني الاسم لكن ... انكليزي الشناشن(٢٦)
عربيّ، أعجميّ ... معرب اللهجة راطن
فيه للايعاز من لنـ ... ـدن بالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجـ ... ـه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيء ... نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نمـ ... ـلك تحريكاً لساكن
أفهذا جائز في الـ ... ـغرب يا مستر كراين؟

(٢٤) الاشارة الى الرئيس الاميركي وودرو ويلسن وبنوده الأربعة عشر التي أعلنها في سنة ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وطالب بأن تكون أساساً لتحقيق سلام عالمي عادل ودائم. وقد، جاء فيها وجوب منح حق تقرير المصير للشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية وتأسيس جمعية عامة للأمم لضمان الاستقلال السياسي لجميع الدول.

(٢٥) الملابن: جمع «ملبن» وهي العلبة التي يوضع فيها اللبن، والمقصود ان اللبن الذي يأتي من ضرع شرقي يوضع في علب غربية، أي أن الحكم في بغداد ينفذه رجال من الشرق ولكن أنماطه انكليزية.

(٢٦) الشناشن: جمع «شنشنة» وهي الطبيعة والخليقة والسجية.

وقد ذاعت هذه القصيدة ذيوعاً عجيباً، وتناقلها الناس وحفظوا أبياتها واتخذوها أنشودة سياسية يرددونها في كل مناسبة.

انتحار السعدون ومعاهدة ١٩٣٠

وفي أواخر سنة ١٩٢٩ انتحر رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون الذي كان سنداً قوياً للرصافي، وأحدث انتحاره رنة أسفٍ كبيرة في البلاد، خاصة حينما نشرت وصيته التي قال فيها: «الشعب يريد الخدمة والانكليز لا يوافقون»، وأقيم له تمثال ما يزال قائماً في قلب العاصمة العراقية.

ولا شك أن الرصافي فقد بوفاة عبد المحسن السعدون سنداً قوياً، وقد رثاه بثلاث قصائد، قارن في احداها بين عبد المحسن السعدون وسعد زغلول قائلاً:

يا أهل مصر وأنتم مثلنا عرب ... ما قلتم عندما أعلمتم الخبرا
ان كان قد أرخص الأموال سعدكم ... فان سعدوننا قد أرخص العمرا

ولما وقعت المعاهدة العراقية ـ البريطانية في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٠، في عهد وزارة نوري السعيد ونشرت نصوصها قال فيها الرصافي:

نشروا المعاهدة التي في طيّها ... قيدٌ يعضّ بأرجل الآمال
قد أبلعونا حبة استغلالنا ... لكن مموهة بالاستقلال
والعهد بين الانكليز وبيننا ... كالعهد بين الشاة والرئبال
مَنْ ذا رأى ذئب الذئاب مصافحاً ... بتوددٍ حملاً من الأحمال
لكنهم خافوا انفكاك قيودنا ... فاستوثقوا منهن بالأقفال
كتبوا لنا تلك العهود وانما ... وضعوا بها قفلاً على الأغلال
شُلّت أكف موقّعيها إنهم ... حلت عليهم لعنة الأجيال(٢٧)

(٢٧) على الرغم من قرب عهد الرصافي فقد اختلف الكتاب في أمر هذه القصيدة، فمنهم من قال انها قيلت بمناسبة عقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٢ (كالمرحوم مصطفى علي في كتابه «أدب الرصافي» ص ١٢٨ وهلال ناجي في كتابه «**القومية والاشتراكية في شعر الرصافي**»، ص ٢١٢) بينما ذهب الدكتور بدوي أحمد طبانة في كتابه «**معروف الرصافي**» الى أن القصيدة تتعلق بمعاهدة سنة ١٩٣٠، وأيده في هذا الرأي قاسم الخطاط في كتاب «**معروف الرصافي شاعر العرب الكبير: حياته وشعره**» ص ١٥١، وقد استند الاستاذ قاسم الخطاط في هذا الرأي الى موقف الرصافي في تأييد معاهدة سنة ١٩٢٢، ذلك الموقف الذي أعلن عنه على صفحات جريدته (الأمل)، فضلاً عن أن البيان الذي أذاعه الرصافي عن معاهدة سنة ١٩٣٠ تضمن المعاني التي وردت في القصيدة، كما أن القصيدة جاءت خالية من الإشارة الى الإنتداب الذي تضمنته نصوص معاهدة ١٩٢٢. والى هذا الرأي أيضاً يميل كاتب هذه السطور.

ومع ذلك فقد أعيد انتخاب الرصافي لعضوية مجلس النواب في ١/١١/١٩٣٠ نائباً عن لواء العمارة، ولما عُرضت هذه المعاهدة على المجلس اقرّها بأغلبية ٦٩ صوتا مقابل ثلاثة عشر، وكان الرصافي أحد الذين صوتوا ضدها، والقى في المجلس بياناً قوياً شجبها فيه.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢ أرتأى الملك فيصل الأول اجراء تغيير وزاري وإقالة نوري السعيد وادخال بعض عناصر المعارضة في الحكم، وكانت تلك السنة بداية عهد جديد في تاريخ العراق الحديث، وهو عهد الاستقلال. ففي هذه السنة دخلت معاهدة التحالف العراقية ـ البريطانية حيز التنفيذ، وبذلك أصبح العراق ـ من الناحية الشكلية على الأقل ـ دولة مستقلة، وانتهى عهد الانتداب البريطاني الذي دام عشر سنوات تقريباً.

وقد قرر الملك فيصل إزاحة نوري السعيد عن الحكم لأنه وجده يسرق الأضواء منه بعد نجاحه في عقد المعاهدة وادخال العراق في عصبة الأمم ويصبح شخصية دولية، إضافة الى بعض الخلافات الشخصية الصغيرة التي نشبت بينهما. ولكن الملك فيصل أراد في الوقت نفسه تكريم نوري السعيد ومكافأته على جهوده في إدخال العراق الى عصبة الأمم، وذلك بمنحه وسام الرافدين من الدرجة الأولى. وفي الاحتفال الذي أقيم في (البلاط) الملكي يوم ٢٦ آذار (مارس) ١٩٣٢ ألقى الرصافي قصيدة هنأ فيها نوري السعيد بهذا الوسام وافتتحها قائلا:

تهْ يا وسام الرافدين بصدر مَنْ — هو للعُلى في الرافدين وسام
نوري السعيد أبو صباح من به — سعد العراق، فثغره بسام
قد أنعم الملك المطاع به لكي — يزدان فيه وزيره الضرغام
يا حبذا ذاك الوزير وحبذا الملـ — ـك المطاع وحبذا الانعام

ولكن الرصافي هجا نوري السعيد بقصائد عديدة بعد ذلك، فقال فيه مرة:

ان نوري السعيد قد كان قبلا — آدمياً فصار بالمسخ قردا
قد أبى أن يعيش حراً مع التر — ك فأمسى للتيمسيين عبدا
مثل ابليس ما أطاق سجودا — وأطاق الهوان لعناً وطردا(٢٨)

وفي ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣ توفي الملك فيصل الأول، فاشترك الرصافي في الحفلة التي أقيمت لتأبينه وأنشد قصيدة عدّد فيها فضائل الملك الذي طالما هجاه أقذع الهجاء وأوسعه انتشاراً بين الناس في العراق. وكان مطلع قصيدته:

أبو غازي قضى فأقيم غازي — فانطقنا التهاني والتعازي

(٢٨) هذه الأبيات لم تنشر في ديوان الرصافي.

وفيها قال:

بنى مجداً عراقياً جديدا — فأسسه على المجد الحجازي
وسار من السياسة في طريق — بحسن الرأي معلمة الطراز

***

لأهل الرافدين عليك حزن — له بقلوبهم فضل ارتكاز
فأنت هديتهم سبل المعالي — كما جنّبتهم طرق المخازي
لئن لبسوا الحداد عليك حزنا — فقد ألبستهم ثوب اعتزاز
وما هم بالبكاء جزوك شيئاً — ولكن الاله هو المجازي

حياته الشخصية

كان الرصافي قد طلّق زوجته التركية منذ مغادرته تركيا ولم يتزوج بعدها، وعاش في بغداد وحده معيشة الأعزب، وكان له خادم يدعى عبد صالح يرعاه ويخدمه. وقد تناقل الناس في بغداد أنباء عن مجونه، والبيت الذي يسكنه في حي سيء السمعة.

قال معروف الرصافي شعراً كثيراً في المرأة وجمالها وفي الحب الحسي والروحي الذي يظهر فيه شغفه بالجمال. ويروي أمين الريحاني أن الرصافي حدثه ذات مرة فقال: «المرأة بهجة الوجود، وريحانة الحياة، وما الحجاب وما السفور ساعة تدنو منك. فان جسمها لينطق حباً، ويشعّ حباً، ويتضوع حباً، سافرة كانت أو محجبة...»(٢٩).

وقال الرصافي مخاطباً الريحاني في قصيدة «خواطر شاعر»:

وما الشعر الاّ ما رنح الفتى — كما رنحت أعطافها شارب الخمر
وان ابتسام الغيد عن كل أشنب — ليطرب نفسي فوق ما أطرب الشعر

وللرصافي غزل حسّي يصف فيه مفاتن المرأة في كل عضو من أعضائها في قصيدة عنوانها «بداعة لا خلاعة» قال فيها:

هي غمازة اللحاظ لعوب — ذات دلّ ظريفة لحانه
بضة، نعمة، لميس، رداح — غادة، احورية بهنانه
ناهد النودلين محطوطة المتنين — خود، رجراجة، وركانه
خدلة ساقها، مهفهفة الخصر — كعاب، براقة، سيقانه

(٢٩) أمين الرحاني، قلب العراق، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٥٤.

ومع هذا الشعر الذي تغزل فيه الرصافي بالمرأة وتحدث عن جمالها الروحي والجسمي، فقد تحدث الناس أيضاً عن علاقات وميول شاذة له. والواقع أن الرصافي نفسه لم يكتم مثل هذه المشاعر، بل جاهر بها في شعره أيضاً، على مذهب أبي نواس.

فقد تغزل الرصافي بحسن شاب وسيم وكان مشهوراً في بغداد يدعى نعيم قائلا:

أسبغ الله نعيم الـ	حسن في وجه نعيم
قمر أغنى في الاشـ	ـراق عن ليل بهيم
علّم الناس صحيح الـ	ـحبّ بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيـ	ـه الى عهد الكليم

ولما قُتل هذا الشاب، رثاه الرصافي بقصيدة مؤثرة، ولعله كان من المعجبين به، والله أعلم.(٣٠)

وللرصافي أيضاً مقطوعة يصف فيها لعبة «البليارد» تعدّ من أبدع شعره الوصفيّ، ولكنها في الوقت نفسه من مدرسة أبي نواس في الغزل المذكر:

وفي الألعاب لم تر قط عيني	كمثل اللعب بالأكر الثلاث

(٣٠) كان ذلك في عام ١٩٠٧ في بغداد حين افتتح فيها أول ملهى في «مقهى سبع»، ونظراً لعدم وجود راقصات في بغداد في ذلك الوقت استحضر صاحبه غلماناً يرتدون ملابس النساء ليرقصوا فيه، وحدث أن رجلا يهودياً مطرباً من حلب اسمه (سليم) خدع غلاما مسيحياً من أهلها اسمه (نعيم) واتى به الى بغداد ليرقص في «ملهى سبع»، فافتتن بجماله بعض رواد الملهى وكان بينهم يهودي يدعى (ابراهيم) وأراد به المنكر فأبت نفس الغلام ذلك، فجاء ذات يوم الى الملهى وهو سكران وأطلق عليه الرصاص، فنظم الرصافي في الحادثة قصيدة رثى بها نعيماً عنوانها (اليتيم المخدوع)، على أن القصيدة تعد من الشعر الإجتماعي، وليس فيها أي غزل أو وصف يخدش الحياء، ومنها قوله:

قضى والليل معتكر بهيمُ	ولا أهل لديه ولا حميمُ

وقوله:

ولو درت النجوم له مصاباً	بكته على ترفعها النجومُ
عسى الشهباء تثأره فتبدي	الى الزوراء ما يبدي الخصيمُ
فلم يقتله (ابراهيم) فيما	أرى بل أن قاتله (سليمُ)
أليس سليم الملعون أغوى	نعيما فهو شيطان رجيمُ
سأبكيه ولم أعبأ بلاحٍ	وأندبه ولو سخط العمومُ

(أنظر في تفاصيل هذه الحادثة: عبد الكريم العلاف، **بغداد القديمة**، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٠، ص ١٢١ ـ ١٢٢، وكذلك الدكتور علي الوردي، **لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث**، الجزء الثالث، بغداد، ١٩٧٧، ص ٢٥٣).

تجول بمستطيل الشكل عال	لطيف صنعه حسن الأثاث
فبيضاوان تندفعان جرياً	الى حمراء بادية اللّهاث
ينال الضرب أحداها فتجري	لضرب الآخرين بلا لباث(٣١)
فتنبعث الثلاث مدحرجات	وقد حصل اصطدام بانبعاث
يدحرجهن أغلمة ظراف	نسيت بهم مغازلة الإناث
بأيديهم عصي مشرعات	مهيأة لضرب واحتثاث
فكان اذا انحنى للضرب منهم	غلام هاج شوقي وهو جاث

وقد وصف الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي كان منتدبا للتدريس في مدارس العراق زيارة له الى الرصافي في بيته في مقالة له نشرها في (الرسالة) على أثر وفاته، ولعل في هذا الوصف خلاصة لكل ما كان يدور على ألسنة الناس عن حياة الرصافي في أوائل الثلاثينات:

«قلت لصاحبي ذات ليلة من ليالي بغداد: أريد أن أزور الرصافي فقد زارني مراراً ولم أزره. فقال: أتشجع على أن تدخل حي البغايا. فقلت له: وما صلة هذا بذاك. فقال انه يسكن بينهن، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن. فقلت له: هلمّ: فما يسع زواره من العذر يسعنا.

«ودخلنا البيت فاذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف، لا أثاث ولا نظام ولا حرمة. وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس في البيت مكتب ولا مكتبة، فقد كان لا يقرأ، وإنما يتكيء على شدة ذكائه وحدة فهمه، ويكتفي بما حصّل في شبابه من أدبه وعلمه. وكان في الردهة قوم يأكلون ويشربون، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء، وفي يمناه كأس، وفي يسراه ورق(٣٢)، فلما رآني فضّ اللعب وأقبل بأنسه عليّ. ثم أخذ يشرب ويتحدث عن الحقائق العارية في غير اكتراث ولا تحفظ. ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال.

«ولكن ندماءه يروون شعره أو يذيعون حديثه فيبلغ الملك فيغضب، أو صاحب الحكم فيعجب، أو صاحب الدين فيصخب، أو صاحب الخلق فيثور.

«وكل أولئك يعادون الرصافي ولكنهم يهابونه لشخصيته، ويحترمونه لعبقريته، ويتربصون به سوء المصير.

«هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم، أما عقيدته فالأمر فيها لله لا

(٣١) اللباث (بفتح الكلام): اللبث أو المكث.

(٣٢) يريد ورق اللعب (الكوتشينة).

للناس، وأما شاعريته فالحكم عليها للناقد لا للمؤرخ. وقد يكون لنا اليها عودة».[٣٣]

الهجرة الى الفلّوجة

على أثر حل المجلس النيابي في عهد وزارة ناجي شوكت في ١٩٣٢/١١/٨ وجد الرصافي نفسه مرة أخرى بلا مورد للرزق. فقرر الهجرة من بغداد، والاقامة في مدينة (الفلوجة) بدعوة من «آل عريم» الذين قدموا له داراً أعدوها لسكناه بلا مقابل.

وعلى أثر الانتخابات التي أجرتها وزارة ناجي شوكت أعيد انتخاب الرصافي نائباً، وكان في هذه المرة نائباً عن بغداد، ومع ذلك فقد بقي مقيماً في الفلوجة يتردد على بغداد لحضور جلسات المجلس، ولم يعد الناس يسمعون شيئاً عن مجونه بعد ذلك، وكانت حياته في الفلّوجة تسير هادئة، ومعه خادمه عبد صالح الذي بقي في خدمته منذ صغره، الى حين وفاته

وحل مجلس النواب في السنة التالية، ولم ينتخب الرصافي المجلس الذي انتخب بعده، وكان مورده الوحيد راتبه التقاعدي البالغ ١٨٢, ١٤ ديناراً. ولكنه عاد الى مجلس النواب في الانتخابات التي أجرتها وزارة ياسين الهاشمي في آب (اغسطس) سنة ١٩٣٥، وأصبح نائباً عن لواء الدليم في هذه المرة.

وكان الرصافي قد بلغ الستين من عمره.

وفي السنة التالية قام بكر صدقي بانقلابه الذي أطاح فيه بوزارة ياسين الهاشمي، وحل المجلس النيابي. فلما قتل بكر صدقي وسقطت وزارة حكمت سليمان، أعقبتها وزارة جميل المدفعي التي حلت محل مجلس النواب مرة أخرى وأجرت انتخابات جديدة انتخب فيها الرصافي أيضاً، وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى شباط (فبراير) ١٩٣٩، ثم حلته وزارة نوري السعيد في ذلك الشهر، وكان ذلك آخر عهده بالنيابة، وقد قضى فيها حوالي ثمانية أعوام.

وقد إنصرف الرصافي في عزلته في الفلوجة الى الكتابة، على الرغم مما كان يعانيه من مشاكل نفسية ومالية، وكتب خلال اقامته فيها أربعة من مؤلفاته وهي (آراء أبي العلاء) - وقد كتبه عام ١٩٣٨ - و(الرسالة العراقية)، و(خواطر وأفكار) وهو الكتاب الذي نقدمه الى القراء ويطبع للمرة الأولى، وكلا الكتابين الأخيرين كتب عام ١٩٤٠، ثم كتابه (الشخصية المحمدية أو اللغز المقدس) وهو لا يزال مخطوطاً.

---

(٣٣) أحمد حسن الزيات، **الرسالة**، العدد ٦١٢، الصادر في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٤٥.

العودة الى بغداد

أقام الرصافي في مدينة الفلوجة سبع سنوات بين عام ١٩٣٣ وأيار (مايو) سنة ١٩٤١، وفي هذا الشهر قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني التي رحب الرصافي بها، وكان ذلك أمراً طبيعياً لأنها كانت ثورة وطنية ضد بريطانيا وضد الوصيّ على العرش الأمير عبد الاله ونوري السعيد، وقال فيها قصيدة عنوانها «اليوم الأغر - يوم الجيش وزعيمه» أذيعت من دار الاذاعة العراقية، ومنها قوله:

اليـوم قـرّي يا مـواطن أعينا ... وتطربي بالحمـد منـك الألسنا
فلقد وفاك الجيش حقك سابغاً ... إذ قام فيك على البلاد مهيمنا
وسعى يحوطك بالصوارم طائعا ... لـزعيمه العـالي الرشيد مذعنا[٣٤]

ثم هاجم الأمير عبد الاله الوصي على العرش والرجال الذين رافقوه في هروبه من العراق فقال:

كفروا بأنعمها وهـم أبناؤهـا ... فلذاك باءوا بالفضيحة في الدنا
نشأوا بها مثل العقارب دأبها ... نفث السموم فمن هنـاك ومن هنا
تـركوا مواطنهم تنوء بعبئهم ... وتقـوّلـوا بالمين عنهـا والخنى
فليرجفوا بعد النزوح فما هم ... الا الـذباب قد استطار مطنطنا
وليخسأوا ان البـلاد جميعهـا ... تقفـو الـزعيم وتـرتضيه مهيمنا

وعلى أثر قيام هذه الثورة قرر الرصافي العودة الى بغداد وكانت القوات البريطانية القادمة من شرق الأردن تهدد مدينة الفلوجة، فعاد الى بغداد واستأجر داراً في (الأعظمية) سكنها مع خادمه وبقي فيها حتى وفاته.

وقد احتل الجيش البريطاني مدينة الفلوجة فعلا، واعتدت قوات «الليفي» المتطوعة في الجيش البريطاني على سكانها، ووجد الرصافي فرصة جديدة للأعراب عن سخطه على الانكليز ومناسبة لمهاجمتهم فنظم قصيدته المعروفة (يوم الفلوجة) قائلا فيها:

أيهـا الانكليز لـن نتناسـى ... بغيكـم فـي مساكـن الفلـوجـة
ذاك بغـي لـن يشفـي الله إلا ... بالمـواضي جـريحـه وفجيجـه
هـو كـرب تأبـى الحمية أنا ... بسوى السيف نبتغي تفريجه
هـو خطب أبكـى العراقين والشا ... م وركـن البنيـة المحجوجـة

ويروي الأستاذ أمين المميز «كشاهد على مدى عداء الرصافي لبريطانيا، انه قال ذات يوم بانفعـال شديـد، ونحن نستمع الى الراديو عن أنباء المعارك في

---

(٣٤) المقصود بالعالي الرشيد: رشيد عالي الكيلاني.

الشرق الأقصى (خلال الحرب العالمية الثانية): لو انتصرت بريطانيا في هذه الحرب أيضاً، سأشكك بعدالة السماء في الأرض»[٣٥]. ومات الرصافي قبل نهاية الحرب بشهرين.

وكان الرصافي عند عودته الى بغداد قد بلغ السادسة والستين من عمره، وقضى أعوامه الأخيرة في داره بالأعظمية في عسر شديد، وخاصة بعد الغلاء الذي داهم الناس منذ نشوب الحرب، وكان أيضاً يعيل خادمه «عبد» وأسرة خادمه التي بلغ تعدادها تسعة أشخاص.

وقد اضطرت الحاجة شاعر العرب الكبير الى فتح دكان صغير لبيع السكاير، وكلف أحد أصدقائه أن يذهب الى أنور شاؤول، المحامي والشاعر اليهودي العراقي، وكان مديرا مفوضاً لشركة «طبارة وعبود» التي تنتج سكاير تسمى (غازي)، ليعطيه حصته من السكاير يبيعها ويستعين بربحها الزهيد على تكاليف معيشته. حتى انه نظم أبياتاً في الدعاية لسكاير غازي، لا يمكن أن تعد من عيون الشعر العربي، أو تنسب الى شاعر عظيم كالرصافي، لولا أنها كانت تنشر في الصحف العراقية باسمه يومياً كدعاية لتلك السكاير، مطلعها:

دخّن سيكارة (غازي)　　　واشعر بفخر اعتزاز

ومع ذلك فلم ينجح الرصافي في تجارته هذه فأغلق دكانه، وكان يردد، وإبتسامته الساخرة ترتسم على فمه:

«والله لو أنني حاولت بيع الأكفان لما استأثرت يد الرحمن بنفس من الأنفس»[٣٦].

وقد خصص له الشيخ مظهر الشاوي، أحد شيوخ قبائل العبيد ومن أعضاء مجلس النواب السابقين راتباً شهرياً يستعين به الرصافي على العيش، كما نص في وصيته المصدقة رسمياً على وجوب دفع هذا المبلغ من تركته ما دام الرصافي حياً،[٣٧] ولا يزال العراقيون يذكرون له هذا العمل النبيل بالتقدير.

وقد عاش الرصافي سنوات حياته الأخيرة في فقر وحرمان شديدين، ومرت به أيام سود أضطر معها أن يبيع معظم ما تبقى لديه من أثاث وسجاد ليعيش بثمنها ويعيل خادمه عبد وأسرة هذا الخادم. وقد كتبت بعض الصحف العراقية، وغيرها من الصحف في خارج العراق قبل وفاة الرصافي بأشهر قليلة، عن حالة الرصافي وناشدت الحكومة والعراقيين كافة، أن يساعدوا هذا الشاعر

(٣٥)　أمين المميز، **بغداد كما عرفتها**، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥، ص ٣٠٣.

(٣٦)　عبد اللطيف حبيب، جريدة **النداء**، بغداد، العدد ١٦٩ الصادر في ١٨ آذار (مارس) ١٩٤٥.

(٣٧)　قاسم الخطاط، المرجع سالف الذكر، ص ١٨٢.

الذي كان صوت العراق المدوي، ومفخرته، وقضى عمره في مناصرة الحق والعدل والحرية.

ولما تكررت هذه الكتابات، ضاق بها الرصافي ذرعاً، ووجدها جارحة لإبائه، فنشر في جريدة (البلاد) الصادرة في بغداد بياناً قال فيه:

«أرى بعض الصحف، هنا وفي الخارج، تكتب عني من حين الى آخر، فتذكر أني في عوز، أعاني منه الفقر والسقام، وأني في ضنك من العيش. ثم هي بعد ذلك، تستعطف الحكومة علي، كأنّ من واجبات الحكومة، أن تسدّ عوز المعوزين، الى غير ذلك من الأقوال التي لا تجاري الواقع، ولا تنطبق على الحال.

أما أنا فأقول: لا أشك أن ما تقوله عني تلك الصحف، صادر عن نية حسنة، وعاطفة شريفة، تستحق الحمد والثناء، ولكن لا يمنعني أن أقول بأنه غير صحيح.

نعم إني ذو صحة مختلة، أحيا حياة معتلة، ولكني - والحمد لله - غير محتاج، ولا يعوزني شيء من مقوّمات الحياة. وكل ما هناك، أنني أعيش كفافاً، ولم يكن عيشي كذلك في هذه الأيام، بل قد تعودته منذ زمان طويل، متبعاً فيه قول أبي العتاهية:

حسبك مما تبتغيه القوت　　　ما أكثر القوت لمن لا يموت

فأرجو من كتاب الصحف، أن يكفّوا، ومن قرائها أن لا يكترثوا لمثل هذه الأقوال. وأنا - وان شكرت لتلك الصحف اهتمامها بشأني - أستنكر استعطافها الحكومة عليّ، اذ لا علاقة للحكومة بهذا الأمر، إن صحّ ما يقولون. فأرجو أن تحول اهتمامها الى ما هو أهم وأدعم من الأمور».

بغداد في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٥
معروف الرصافي[٣٨]

الرصافي والزهاوي

إقترن اسما الرصافي والزهاوي في العراق اقتران إسمي شوقي وحافظ في مصر. وكان لكل منهما أنصاره والمعجبون به، المتحزبون له، وقد قامت بين الفئتين مناقشات كثيرة ومعارك أدبية حامية في الصحف العراقية.

وكانت نشأة الشاعرين وبيئتهما وثقافتهما متشابهة الى حد كبير. وقد نشأ كلاهما في بغداد، ودرسا العلوم العربية على الطريقة القديمة، ثم اتصلا بالأدب

(٣٨)　جريدة **البلاد**، بغداد، العدد ٢٤٣٦ سنة ١٩٤٥.

التركي، والمجتمع التركي وأصبحا نائبين في مجلس المبعوثان العثماني، ومدرسين للآداب العربية في أرقى المعاهد التركية. ومع ذلك فقد كانت بين طبائع الرجلين ونفسيتيهما، وعاداتهما الشخصية فروق كبيرة أيضاً. وعلى الرغم من أن الرصافي عرف الحياة الزوجية لمدة قصيرة في استانبول، فان أغلب حياته كانت حياة الأعزب البوهيمي يشرب الخمرة، وينهب اللذات بلا حدود ولا اكتراث لمركزه الاجتماعي ومكانته العلمية. بينما كان الزهاوي زوجاً يحب زوجته ويحترمها الى آخر يوم من حياته، وكانت له زوجة فاضلة تعنى به عناية فائقة، وخاصة بعد مرضه وإصابته بالفالج، ولذلك كانت حياته من الناحية الإجتماعية لا غبار عليها، ولم يعرف عنه مجون أو معاقرة لبنت الحان، وليس من المعروف، بطبيعة الحال، أكان الزهاوي في ذلك مكرهاً أم بطلاً.

ولكن الزهاوي كان مهادناً للسلطة، لا يتمتع بمثل شجاعة الرصافي السياسية ولا يجرؤ على معارضتها. وبينما كان الرصافي يحن الى العثمانيين وعهدهم، ويقول فيهم بعد خروجهم من العراق على اثر الاحتلال البريطاني:

أنا باقٍ على الوفاء وان كا   نت بقلبي ممن أحب جراح

وبينما كان الرصافي يهاجم الانكليز بعد احتلالهم بلاده، وهم في أوج قوتهم ونفوذهم، ويهجو الملك أعنف الهجاء وأقذعه، كان الزهاوي يغمز العثمانيين، ويساير الانكليز ويجاملهم، بل يتغنى بعدالتهم وأخلاقهم فيقول:

أحب الانكليز وأصطفيهم   لمرضي الاخاء من الأنام
جلوا من الملك ظلمه كل ظلم   بعدل ضاء كالبدر التمام

وقد رحب الزهاوي بعودة السير برسي كوكس مندوباً سامياً في العراق، واستقبله عند وصوله الى بغداد في سنة ١٩٢٠ في أعقاب الثورة العراقية، قائلا أبياته التي لم يغتفرها له العراقيون:

عد للعراق وأصلح منه ما فسدا   وابثث به العدل وامنح أهله الرغدا
الشعب فيه عليك اليوم معتمد   فيما يكون كما قد كان معتمدا

وانضم الزهاوي الى الحزب (الحر المعتدل) الذي كان موالياً للانكليز، بينما هجا الرصافي ذلك الحزب حينما نفت السلطات البريطانية عدداً من الوطنيين المعارضين، وحلت الحزبين الوطنيين، قائلا:

قولوا لحزب تسمّى الحر معتدلا   هل أنت من بعد نفي القوم معتدل؟
وهل لما حلّ بالحزبين باكية   عيناك أم أنت مسرور به جذل؟
تالله ما أنت حرّ في مطالبه   وانما أنت للحكام معتمل
قد احتملت من التاريخ لعنته   لله درّك ماذا أنت محتمل

ومع ذلك، فقد كانت العلاقة بين الرجلين، في البداية، طيبة، والاحترام بينهما متبادلا. ولما عاد الرصافي بعد هجرته الى بيروت ألقى الزهاوي في الحفلة التي أقيمت له ـ والتي سبقت الاشارة اليها ـ قصيدة قال فيها:

لقد عادَ معروف أخي بعد غيبةٍ   فأهلاً برب الفضل والأدب الوَفر
واني لأطرى الشعر منه يهزّني   وأي امرىء للشعر إن هزّ لا يطرى
وقد شربت أذني سلافة لفظه   فليس عجيباً أن أميل من السكر
واني بمعروف اعتزّ إنه   اخو ثقة، والحرّ يعتز بالحر
كلانا يريد الحق فيما يقوله   واني وإيّاه الى غايةٍ نجري
فخذ بيد اللهم في كل دعوة   وهذا أخي معروف أشدد به أزري

وألقى الرصافي، في حفلة أقيمت لتكريم الزهاوي عند عودته من رحلة الى القاهرة، قصيدة قال فيها:

أرى بغداد من بعد اغبرار   زهت بقدوم شاعرها الزهاوي
زهت بكبيرها أدباً وعلماً   زهت بطبيب علّتها المداوي

* * *

وما الآداب في بغداد لولا   يراع جميلها الآّ دعاوي
إذا ما قال في بغداد شعراً   رواه له بأقصى الأرض راوِ

ولكن الغيرة بدأت تدب بين الرجلين بعد ذلك، وأخذا يتنافسان على زعامة الشعر، وكان يؤججها أنصارهما بتقولاتهم ووشاياتهم ومقالاتهم، حتى حل الجفاء بينهما محل الوئام، وثارت في بغداد معارك أدبية طريفة في الصالونات والمقاهي، وتروى عن هذه المنافسة نوادر كثيرة.

كان الزهاوي في مجلس حضره الملك فيصل، فسأله الملك عن رأيه في شاعرية شوقي، فأجابه الزهاوي قائلا: «مولاي، ان تلميذي الرصافي أشعر منه».

وصادف أن أقام طلبة المدرسة الثانوية المركزية في بغداد حفلة أدبية دعي اليها الشاعران، ولما حضرا أجلسا على كرسيين متجاورين، فأخذ كل منهما يدير ظهره للآخر ويشيح بوجهه عنه. فاذا دعي الزهاوي الى المنبر ألقى قصيدة جاء فيها البيت الآتي:

وللشعر في بغداد روح   وللشعر أعباء أقوم بها وحدي

فغضب الرصافي وغادر الحفلة احتجاجاً.[٣٩]

(٣٩) خيري العمري، شخصيات عراقية، مطبعة دار المعرفة، بغداد، ١٩٥٥، ص ٧٩.

وروى صديق للزهاوي أن الرصافي كان في مجلس يضم بعض الأدباء، فقرأ أحد الحاضرين رباعية للزهاوي قال فيها:

أكثر الترب عظام ... من ضلوع وصدور
سحقتها أرجل الدهـ ... ـر وأقدام العصور

فقال الرصافي معلقاً عليها: «غفر الله لأبي العلاء، فقد سطا على معاني الزهاوي لما نظم قصيدته: خفف الوطء...»[٤٠]

ولما توفي (أمير الشعراء) أحمد شوقي، كتب طه حسين مقالة قال فيها «إن إمارة الشعر قد انتقلت بعد وفاة شوقي من وادي النيل الى وادي الرافدين»، فلما وصلت هذه المقالة الى بغداد اشتدت المعارك الأدبية، وعادت المساجلات بين أنصار الرصافي وأنصار الزهاوي، وكان بعضها لا يخلو من طرافة. وأراد (عبد القادر المميز) صاحب جريدة (أبو حمد) الفكهة، أن يداعب الزهاوي ويستفزه، فنشر في الصفحة الأولى من جريدته خبراً مفاده أن وفداً من أدباء العراق ذهب الى الفلّوجة ليبايع الرصافي على امارة الشعر. وعلى الرغم من أن الزهاوي كان يعلم حق العلم ان الخبر ملفق، فانه ثار لنشره وغضب، وأهاب بأصدقائه ومريديه أن ينتصروا له. فصدرت الصحف في اليوم التالي وهي تحمل القصائد والمقالات التي يعلن فيها أصحابها بيعتهم للزهاوي بأمارة الشعر.[٤١]

ولما اشتدت المعارك بين الطرفين وكادت تخرج عن حدود المعارك الأدبية المعتادة تدارك أصدقاء الشاعرين الأمر وبادروا الى اصلاح ذات البين، وأقام المرحوم محمود صبحي الدفتري (وهو من وزراء العدل والخارجية في العهد الملكي ومن السياسيين المرموقين المحبين للآداب والمقدرين فضل الشاعرين) دعوة في داره في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٨ حضرها الشاعران وعدد من كبار السياسيين والأدباء والصحافيين في بغداد، وأصلح ما بين الرجلين. وفي هذه الدعوة أنشد الزهاوي قصيدة طريفة جاء فيها قوله:

أرى الصباحَ ولا أغرّدُ شادياً ... إني اذن حجرٌ من الأحجار
أنا بلبلُ انشودتي أغرودتي ... أشدو بها، ويراعتي منقاري
لو لم أكن ذا لحيةٍ وسدارةٍ ... لحسبتني طيراً من الأطيار
جمع الأديب الحرّ صبحي شملنا ... في داره أكرم بها من دار

---

(٤٠) المرجع نفسه.

(٤١) المرجع نفسه، وكذلك أنظر تفاصيل وافية وطريفة عن المعارك الأدبية بين الرصافي والزهاوي وأنصارهما في: عبد الرزاق الهلالي، **الزهاوي: الشاعر الفيلسوف والكاتب المفكر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٢٩١ ـ ٣٥٢.

ولما توفي الزهاوي (في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٣٦) وقف الرصافي على قبره بين مشيعيه، يبكي بكاء مراً، وألقى أبياتاً يقال إنه ارتجلها لساعته:

أيها الفيلسوف قد عشت مضنى ... مثل ميت وصرت بالموت حيّا
سوف يبقى بين الورى لك ذكر ... ناطق بالبقاء لم يخش شيّا
أنت فردٌ في الفضل حيا ومَيْتاً ... حزت في الحالين ذكرا عليا
سوف أبكي عليك شجوا واني ... كنت أبكيك في الحياة شجيا

أزمة «رسائل التعليقات»

في مطلع عام ١٩٤٤ نشر للرصافي كتاب صغير بعنوان «رسائل التعليقات» ولم يكد ينزل الى الأسواق وتتداوله الأيادي حتى قامت عليه ضجة كبيرة أثارها بعض رجال الدين فاتهموه بالكفر والالحاد والتطاول على الرسول (ص)، ووصلته تهديدات بالقتل. ووجد الرصافي نفسه في محنة جديدة وهو يصارع الشيخوخة والأمراض والفقر.

وذهبت بعض الوفود الى البلاط الملكي وديوان رئاسة الوزارة مطالبة باتخاذ الاجراءات بحق الرصافي، فعهدت الحكومة الى مدير الأوقاف العام بالتحقيق في هذا الموضوع واستطلاع آراء علماء الدين في كتاب الرصافي وهل يمس الدين الاسلامي، فلما فعل جاءت الردود بأن كتاب الرصافي ليس فيه أفتئات على كرامة الدين، وأن الرصافي يظهر في كتابه قوي الايمان بالله ورسوله، راسخ الاعتقاد بما جاء به القرآن الكريم، وبذلك انتهت هذه الأزمة.[٤٢]

النهاية

اشتد المرض على الرصافي خلال هذه الأزمة، فنقل الى المستشفى، ثم عاد الى داره بعد أن تحسنت صحته قليلاً وزال عنه الخطر. ووصف الشاعر الجواهري حالة الرصافي حين زاره في تلك الأيام قائلا:

«... في تلك الغرفة الجرداء التي لا أنساها أبداً وكأنما أنا فيها الآن، وكان الرصافي ـ وهو ذاك أمامي ـ على سرير من السرر الرخيصة لولا أن الرصافي هو الذي كان ينام عليه وكان هو الآن وقد أحس بي وأنا أدب على أطراف أصابعي لئلا أوقظه، وكانت الحيرة في أين أجلس اذ ليس في الغرفة كرسي أو خشبة أو حتى حجر للجلوس، وكأنما هي في هذه الساعة لا غيرها اذ تتبدد الحيرة

---

(٤٢) انظر تفاصيل هذه الحادثة في قاسم الخطاط، المرجع سالف الذكر، ص ١٧٨ ـ ١٨١.

باستيقاظ الرصافي وبوجودي محلا على طرف السرير فيتحامل على نفسه، فألحّ عليه ملتمساً ألّا يفعل فيأبى فأطيع، فأتحدث إليه آخر حديث وأوجعه قبل أن يموت بأيام...

«قد انقضى (عصر الرصافي) في هذه الغرفة الجرداء ولم يسدل عليه ستار، وكان الجو مشمساً والضوء يؤذي عيون الرصافي، وكان على درجة من الحرارة لا يطيقها مريض مثقل لا بدّ له من أن يمدّ عليه الغطاء، أحلف صادقاً أنه لم يكن في غرفة صاحب هذا الجيل أي ستار...»[٤٣]

وفي ليلة الخميس الموافق ١٥ آذار (مارس) اشتدت الآلام على الرصافي فَعاده صديقه الدكتور اسماعيل الصفار، وكانت موجة من البرد قد مرت ببغداد فأصيب الرصافي بذات الرئة. وكان في تلك الليلة ينتفض انتفاضات مرعبة، ويمسك جنبه بيده وهو يقول متوجعاً من الألم: «آمان، آمان». وفي تلك الليلة انتقل الرصافي الى جوار ربه. وهكذا انتهى الشاعر القائل:

تنظّمنا الأيامُ شعراً وإنما تردّ المنايا ما نظمنَ الى النثر
فمنّا طويلٌ مسهبٌ بحرُ عمرهِ ومنا قصيرُ البحرِ، مختصرُ العمرَ

وكان الرصافي في حوالي السبعيَن من عمره.

وصيّةُ الرُصافيّ

بينما كان أصدقاء الرصافي في داره يستعدون لتشييعه الى مثواه الأخير ذُكرت وصية الرصافي التي كتبها وأودعها صديقه المحامي محمود السنوي، وطلب اليه أن لا يذيعها الّا بعد موته. فأخرج محمود السنوي الوصية وأعطاها الى صديقه وراويته مصطفى علي، فقرأها على الحاضرين، وكانت بدون تاريخ:

نَصّ الوَصيّة

«أراهم يهيّجون عليَّ العوام باسم الدين، ولا أظنهم يتركونني حتى يعدموني الحياة وليس لي مَن ألتجىءُ اليه سوى الله، وكفى بالله حافظاً وحسيبا، وليس لي من الأقارب من أعهد اليهم بوصيتي سوى معارفي من الأصدقاء الأحرار من أهل البلاد، فلذا أكتب هذا اليهم عسى أن يقوموا بتنفيذه ولهم من الله الأجر.

«كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وانما

(٤٣) محمد مهدي الجواهري، مهرجان الرصافي، اتحاد الأدباء العرب، بغداد، ١٩٥٩.

قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذي أنا منهم، ونشأت بينهم، فلذا لم أوفّق الى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة.

«لا أملك سوى فراشي الذي أنام فيه، وثيابي التي ألبسها. وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذي في مسكني ليس لي، بل هو مال أهله الذين يساكنونني.

«كل من اعتدى عليّ في حياتي فهو في حِلّ مني. وان كان هناك من إعتديت عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني، وإلا قضى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين.

«أنا ـ ولله الحمد ـ مسلم، مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائي فيه ولا أداجي، إلا أني خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين، وليست هي منه الا بمنزلة القشور من اللباب، ولا يهمني من الدين إلّا جوهره الخالص، وغايته المطلوبة التي هي الوصول الى شيء من السعادة في الحياة الدنيوية الإجتماعية، والحياة الأخروية ما أمكن الوصول اليه من ذلك بترك الشرور وعمل الصالحات وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهي وسيلة اليه، وواسطة له ليس إلا.

«بما أن «عبد بن صالح» الذي هو معاوني على العيش في مسكني كنت أنا السبب في زواجه، وقد ولد له بنات صغار، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادراً على إعاشتهن، أرجو من أهل الخير في الدنيا، ومن أصدقائي الكرام الأحرار أن يسعوا في إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم بإعاشتهن وان الله لا يضيع أجر المحسنين.

«كل ما عندي من الكتب المخطوطة التي كتبتها أنا تباع لمن يرغب في شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر، ولا يكون لي فيها سوى الأسم، ويدفع المال الحاصل من بيعها الى بنات «عبد».

أدفن في أي مقبرة كانت، على أن يكون قبري في طرف منها، وأن يكون في أرض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلا.

ان كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده، فان الموت رحمة واسعة منه عليهم. فالموت هو رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء.

«كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

المؤمن بالله وحده لا شريك له
معروف الرصافي

تمثالُ الرُصافيّ

بعد وفاة الرصافي بخمسة وعشرين عاماً قررت أمانة العاصمة في بغداد إقامة تمثال لشاعرها الكبير، وكلفت أحد الفنانين العراقيين بصنعه.

ونصب التمثال في (ساحة الأمين) في قلب العاصمة العراقية، وأزيح عنه الستار بتاريخ ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٠، وهو تمثال ضخم للرصافي بالملابس الافرنجية على الرغم من أن الرصافي كان قد استبدلها منذ مدة طويلة بالملابس العربية التي وجدها أقل كلفة وأكثر اراحة. وكان تمثال الرصافي وعبد المحسن السعدون ـ الذي طالما كان يسنده ويحميه ـ التمثالين الوحيدين في بغداد.

وفي التمثال شموخ في الوقفة، وصورة حيّة لاعتزاز الرصافي بنفسه. وقد ألقيت في الاحتفال بازاحة الستار عنه بعض الكلمات القصيرة عن الرصافي، ولو استطاع التمثال نفسه أن ينطق لردد قول الشاعر:

إني رأيتك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زوّدتني زادي

على أن الرصافي لم يكن أول عظيم تجحده أمته في حياته، لتندبه وتمجّده وتقيم له التماثيل بعد مماته. وكان جزء ضئيل من نفقات التمثال يكفي لتوفير عيش كريم لهذا الشاعر العظيم.

شِعرُ الرصافي

خلف الرصافي تراثاً شعرياً ضخماً في كميته، ثميناً في محتواه، متنوعاً في أغراضه، وكان شعره متين السبك، شديد الأسر، وقدرته على النظم خارقة، وسيطرته على القافية قوية. وإذا كانت في شعره أحياناً بعض الألفاظ الحوشية والصور المجازية التي يخيل لقارئها أنه إزاء شاعر جاهليّ أو أمويّ، فانّ تلك الألفاظ كانت على الدوام في مواضعها المناسبة، دقيقة في التعبير عن المعنى الذي يريده بحيث لا يمكن أن يحل محلها غيرها بسهولة، وقد لاحظ الدكتور ابراهيم السامرائي أن الرصافي «حين يغرب في لفظه، وحين يعرض عليك صوراً قديمة فيها كثير من الطبيعة العربية البدوية، وفيها المنهج التقليدي لنظم القصيدة العربية، إنما يقابل هذا سهولة في القصيدة نفسها، حتى كأنك تقرأ مقالة في صحيفة يومية من صحف هذا الزمان...»[٤٤] ولا يكاد القارىء يجد في

(٤٤) الدكتور ابراهيم السامرائي، مقاله بعنوان «الرصافي بين المحافظة والتجديد (الجانب اللغوي)» ـ مجلة الثقافة الجديدة، بغداد، آذار (مارس) ١٩٥٩.

شعر الرصافي أثراً لتكلّف في صياغة فكرته في قالب شعري، ولا أي تقديم وتأخير مراعاة للوزن أو القافية ـ مما يجده في شعر الزهاوي بكثرة ـ بل أن شعر الرصافي فيه سلاسة وفيه موسيقى، وكأنه حديث يسترسل فيه استرسالاً. وكان الرصافي مدركاً لموهبته هذه حين قال:

وجردت شعري من ثياب ريائه ... فلم أكسه الا معانيه الغرّا
وأرسلته نظماً يروق انسجامُهُ ... فيحسبه المصغي لانشاده نثرا

وكانت هذه القدرة لدى الرصافي تعود بلا ريب الى دراسته الأولى في عهد يفاعته، وكثرة محفوظاته الشعرية ودراسته اللغوية والأدبية وملازمته استاذه الألوسي اثنتي عشرة سنة في السن التي يكون فيها «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

قال صديقه العلامة طه الراوي في مقالة كتبها بعد وفاته: «لو قلت لك إنني لم ألقَ في عمري أديباً أوسع منه معرفةً باللغة وخصائص مفرداتها وبالصرف والنحو وما يتصل بقواعدهما من قيود وشروط ـ لم أعدُ الواقع...»[٤٥]

أما شعره السياسي والقومي فقد سبقت إشارات كثيرة إليه خلال البحث عن حياة الرصافي في مراحلها المختلفة، ولعل هذا الشعر هو الذي أكسب الرصافي شهرته الواسعة ولفت الأنظار اليه في بداية عهده. وكان على الدوام مطبوعاً بطابَع شخصيته القوية الصريحة وجرأته البالغة. وقد أيد الرصافي الاتحاديين، ودافع عن الدولة العثمانية، ولكنها حين اتخذت من العرب موقفاً لا يرتضيه، هاجم حكمهم، وانتقد (سلطانهم) بشجاعة نادرة المثال. وقصائده «تنبيه النيام»، و «إيقاظ الرقود»، و «رقية الصريع» شواهد مهمة على ذلك، على أن في ديوانه الكثير غيرها.

ولما احتلّ الانكليز العراق حاربهم الرصافي بشعره في عهدي الاحتلال والانتداب بلا هوادة، كما حارب أعوانهم. وكذلك هاجم الملك فيصل الأول ونوري السعيد بشجاعة غريبة كلّفته غالياً. ولو سايرهما وصانعهما لسارت حياته في إتجاه مغاير، ولَمَا قضى الشطر الأعظم من عمره رهين البؤس والعوز.

وبكى الرصافي في شعره أمجاد الأمة العربية، وأشاد بأبطالها في عصورها الزاهرة، وبأياديهم على الحضارة الانسانية، ومن عيون شعره في هذه الأغراض قصيدته «نحن والماضي» التي يفخر بها بالعرب ويمجّد الرسول الكريم، وكذلك قصائده في سقوط بغداد والخلافة العباسية على يد هولاكو. ودعا الى وحدة

(٤٥) طه الراوي، مقالة بعنوان «صديقي الرصافي»، مجلة عالم الغد، بغداد، العدد ٩ الصادر في ١/٤/١٩٢٥.

العرب التي وجد فيها السبيل الوحيد لنهضتهم قائلا:

قد أنهضتهم الى العلياء وحدتهم   واليوم أقعدهم عنها ان انقسموا

ومع ذلك فلم يفته أن يؤكد في كل مناسبة على أن الرجوع الى الماضي، والتفاخر بأمجاده لا يجدي وحده، بل لا بد من اصلاح الحاضر، والتطلع الى مستقبل أفضل يُبنى على العلم والمعرفة:

أجل، ان القبائل من معدّ   علوا فتسنموا المجد المجيدا
ولكن أيها العربي إني   أراك لغير ما يجديّ مريدا
وما يجدي افتخارك بالأوالي   اذا لم تفتخر فخراً جديدا
أرى مستقبل الأيام أولى   بمطمح من يحاول ان يسودا
وهل إن كان حاضرنا شقيّا   نسود بكون ماضينا سعيدا
وشرّ العاملين ذوو خمول   إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا

ومن أهم الأغراض التي عالجها الرصافي في شعره هي القضايا الاجتماعية والانسانية. وفي قصائده الاجتماعية قيم حضارية كانت جديدة في زمانها، وأهداف نبيلة في إيقاظ الأمة، ومعالجة مشاكلها الاجتماعية والتنبيه اليها، فقضايا الفقر، ومشاكل الطلاق، وأهمية العلم والتعليم، والحرية الاجتماعية والسياسية والفكرية، وحرية الشعوب في تقرير مصيرها، وأهمية الفنون الجميلة وأثرها في نهضة الأمم، من أهم الموضوعات التي شغلت جانباً كبيراً من إهتمام الرصافي. وقصائده (أم اليتيم) و(الطفل في العيد) و(الفقر والسقام» و(السجن في بغداد) و(الأرملة المرضعة) من جملة قصائده التي ذاعت شهرتها في البلاد العربية جميعاً، وتغنى بها الناس ووجدوها صادرة عن تجارب حقيقية، وعاطفة صادقة. وقد يبدو لنا بعضها الآن ساذجاً يحتوي على بدهيات أصبحت معروفة لكل انسان. ولو قال أحد الشعراء مثلها اليوم لما التفت اليها أحد في أغلب الظن، ولما أعجب بها قارىء الا من ناحية متانة لغتها وقوة سبكها. ولكنها لم تكن كذلك في الوقت الذي قيلت فيه ونشرت، ولو ظهر المتنبي في زماننا هذا، ونشر قصائده في صحف، لسخّف الناس معظمها، ولذلك لا بد أن يكون الحكم على قصائد الرصافي، وخاصة الاجتماعية منها، مقروناً بزمانها وبمقاييسه.

ويدخل في باب شعره الاجتماعي قصائده في المرأة وتحريرها. وفي ديوان الرصافي باب كامل أسماه (النسائيات) تضمن قصائد عن المرأة وتأخرها في الشرق، دعا فيها الى تحريرها وتعليمها والى احتلالها مكانها اللائق في المجتمع.

ويبدو أن الرصافي كان متأثراً في هذه القصائد بقاسم أمين، وبأفكار التحرر التي كانت قد ظهرت في تركيا حينما كان الرصافي مقيماً فيها.

وكانت أكثر قصائد الرصافي الاجتماعية والوطنية ممزوجة بحالاته النفسية والوجدانية، ففيها حنين الى الوطن حينما يكون بعيداً عنه، وعتاب على بغداد لتأخرها الاجتماعي والسياسي، ولتناسيها إبنها الذي ما انقطع عن التغني بحبه لها حتى يومه الأخير. ولكنه في الوقت نفسه دعا الى التسامح مع الآخرين، والصفح عن الأعداء، والقناعة في العيش. ووصيته خير دليل على ذلك.

أما قصائده الفلسفية والكونية فهي نتاج نزعته العقلية، وفيها طائفة من التأملات النفسية، والآراء والتساؤلات عن أصل الوجود وما وراء الطبيعة.

وعلى الرغم من أن الرصافي عاقر الخمرة وأحبها، وكان يكثر من التدخين، فانه كان ينبّه الى اضرارهما، ويحذّر منهما، وقد قال فيهما ـ فيما قال :

اني لأمتصّ جمراً لُفّ في ورق   إذ تشربون لهيباً ملءَ كاساتِ
كلاهما حمق يفتر عن ضرر   يسمّ من دمنا تلك الكرياتِ
يا من يدخن مثلي كل آونةٍ   لُمْني أُلُمْك ولا ترضى اعتذاراتي

أما غزله فهو أقل شعره، وقد كتب معظمه في شبابه، وفيه كثير من الرقة والموسيقى التي تميز بها جميع شعره، ولكنه مع ذلك يفتقر الى حرارة العاطفة وصدقها، وهو على أي حال لم يبلغ فيه الشأو الذي بلغه في الأغراض الأخرى.. وله قصيدتان أو ثلاث في الغزل المذكر، وبعض الغزل المكشوف. وقد كان الرصافي ـ على قول أمين الريحاني ـ شاعراً عاطفياً مشغوفاً بالجمال على ألوانه، الجمال الطبيعي، والجمال الفني، وجمال المرأة الفائق كل جمال.(٤٦)

ومما يلاحظ في الدراسات الكثيرة التي صدرت عن شعر الرصافي أنه لم يفرد أي منها فصلا خاصاً عن هجاء الرصافي بوصفه أحد الأغراض الرئيسية التي برز فيها، في حين أن الهجاء كان من أهم جوانب شعره، وهو في ذلك لا يقلّ قوة وعنفاً عن الحطيئة وجرير. وهجاؤه مقذع، وبذيء أحياناً، وفيه سخرية شديدة وقسوة بالغة. وقد نال الملك فيصل الأول، ونوري السعيد، والزهاوي، والانكليز النصيب الأكبر من شرر ذلك الهجاء، وسار على ألسنة الناس وردده عامتهم وخاصتهم على نطاق واسع.

وأما مدائحه فقليلة أيضاً، وهي وليدة المناسبات. وله قصائد كثيرة في الرثاء

---

(٤٦) أمين الريحاني، المرجع سالف الذكر، ص ٢٥٣.

معظمها جيد، فيها عاطفة صادقة. وله شعر في الشكوى، وفي الهجاء، وهجاؤه مقذع وبذيء أحياناً. وفي ديوانه باب كامل أسماه (الحربيات) وصف فيها حروب طرابلس الغرب، والحرب الروسية ـ اليابانية وغيرهما، وفيه باب أسماه (الحريقيات) وصف فيه الحرائق الكبيرة التي كانت تحدث في الأستانة. وله مقطوعات كثيرة على كثير مما قاله في المناسبات والأغراض المختلفة، بينها مقطوعات رائعة وأخرى ذات مستوى عادي، يمكن أن توصف بالنظم وليس الشعر.

ومن المتفق عليه أن أهم مزايا الرصافي في جميع شعره قدرته الفائقة في الوصف. بل ان الرصافي ـ كما ذهب الاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ فاق فيه جميع شعراء جيله.(٤٧) وقد تناول الرصافي في قصائده وصف الجماد والنبات ومشاهد العمران ومناظر الطبيعة والمخترعات الحديثة، وتتجلى في وصفه دقة في الملاحظة، ووضوح في الرؤية وسعة في الخيال، وكأنه حين يصف أحد المخترعات الحديثة أو الجماد ينفخ فيه الحياة، ويخرجه من مرتبة الجماد، ويضيف عليه صفات الأحياء، بخيال خصب وتشبيهات دقيقة. ويجد القارىء في صفحات ديوان الرصافي كلها أبياتاً رائعة في الوصف، مهما كانت أغراض القصيدة، ونستشهد هنا بقصيدة واحدة في موضوع يبدو بسيطاً، وهو وصف (القطار). ففي هذه القصيدة يذكر الرصافي ما يعرفه كل انسان عن القطار، ولكنه مع ذلك يأتي بتشبيهات رائعة ترتفع به عن مستوى الآلة الجامدة. وهذه القصيدة كانت من المحفوظات الشعرية التي يدرسها تلامذة المدارس الابتدائية فتثير تشبيهاتها إعجابهم واهتمامهم، كما كانت تهز القارىء الناضج المثقف، نستشهد بها لبساطة موضوعها، وما قد يبدو من سذاجته، لأنها تظهر قدرة الرصافي على جعل مثل هذا الموضوع البسيط مادة لقصيدة رائعة في الوصف تذكر القارىء بعنترة العبسي يصف جواده، أو البحتري يصف إيوان كسرى أو بركة المتوكل:

وقاطرة ترمي الفضا بدخانها   وتملأ صدر الأرض في سيرها رعبا
لها منخر يبدي الشّواظ تنفّسا   وجوف به صار البخار لها قلبا
تمشّت بنا ليلاً تجر وراءها   قطاراً كصفّ الدّوح تسحبه سحبا
فطوراً كعصف الريح تجري شديدة   وطوراً رخاء كالنسيم اذا هبّا
تساوى لديها السهل والصعب في السرى   فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا
تدك متون الحزن دكّا وانها   لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا

(٤٧) مصطفى عبد اللطيف السحرتي، المرجع سالف الذكر، ص ٢٨٠

يمرّ بها العالي فتعلو تسلّقا   ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
وتخترق الطود الأشم إذا انبرى   وقد وجدت من تحت قنته نقبا
يرنّ بجوف الطّود صوت دويها   اذا ولجت في جوفه النفق الرحبا
لها صيحة عند الولوج كأنها   تقول يا طود خلّ لي الدربا
وتمضي مضي السهم فيه كأنما   ترى أفعواناً هائجاً دخل الثقبا
تغالب فعل الجذب وهي ثقيلة   فتغلب بالدفع الذي عندها الجذبا
طوت بالمسير الأرض طيّا كأنها   تسابق قرص الشمس أن يدرك الغربا
وما أن شكت أينا ولا سئمت سرى   ولا استهجنت بعدا ولا استحسنت قربا

معتقداته الدينية والسياسية

يبدو الرصافي في أكثر شعره مؤمناً بالله ورسوله، غيوراً على اسلامه، وكان يميل الى (السلفية) متأثراً بأستاذه الألوسي. وفي شعره أمثلة صريحة على ذلك. فهو ينتقد حلقات الذكر، وزيارة القبور وتقبيلها، التقيد بشرط الواقف في الوقف اذا كان فيه ظلم أو ضرر.

وقد اتهم الرصافي في زمانه بالكفر والالحاد، وقيل عنه أنه كان يدعو الى البلشفية والاشتراكية، وقد أشار الى هذين المذهبين في شعره صراحة، ودعا الى إنصاف العمال وإصلاح أحوالهم، ومجّد دورهم في بناء المجتمع.

وقال في بعض قصائده:

يا قوم خلوا الفاشية انها   في السائسين فظاظة وتعجرف
للانكليز مطامع ببلادكم   لا تنتهي إلّا بأن تتبلشفوا

وقال أيضاً:

انما الحق مذهب الاشترا   كية فيما يختص بالأموال
مذهب قد نحا اليه أبو ذر   قديما في غابر الأجيال

وقد حملت هذه الأبيات وأمثالها الدكتور صلاح خالص على كتابة مقالة خلاصتها ان الرصافي كان شاعراً طبقياً، وان صوته صوت طبقة معينة هي طبقة الكادحين، وانه أسهم في محاربة البرجوازية.(٤٨)

وعلى الرغم من أننا لا نظن أن الرصافي كان ماركسياً، يدعو الى تطبيق النظام الشيوعي، فلا يسعنا أيضاً أن نتفق مع الأستاذ هلال ناجي فيما ذهب إليه من

(٤٨) الدكتور صلاح خالص، مقالة بعنوان «الرصافي شاعر الكادحين» في الثقافة الجديدة، السنة السابعة، العدد ٨، بغداد، نيسان (ابريل) ١٩٥٩.

أن البلشفية كانت مجرد لفظة اقتضتها ضرورة القافية.(٤٩) فقد كان الرصافي شاعراً متمكناً من الصياغة الشعرية بدرجة عالية، وليس ممن يلجأ الى لفظة لها دلالات خطيرة كالبلشفية لمجرد أنه كان يبحث عن لفظة تنتهي بحرف الفاء.

ومما يزيل هذا الشك لدينا الآن ما نقرؤه في الفصل المعنون (الاشتراكية في الاسلام) من هذا الكتاب الذي ننشره، وهو من أطول فصوله، اذ قال فيه: «.. ان دين الاسلام بعيد كل البعد عن (الرأسمالية) الجشعاء الظالمة المستبدة بنعم الله التي جعلها مشاعة بين خلقه. كما انه بمبادئه الحقة منطبق كل الانطباق على مبدأ (الاشتراكية الشيوعية) التي تبطل الملك ولا تجعل للمرء بسطة في العيش الا بمقدار ما له من كد دائب وعمل منتج»(٥٠)

ولا يستطيع أحد أن يؤكد آراءه في الاشتراكية والشيوعية بأكثر من هذه الصراحة. ولكننا نرى ان الرصافي، على الرغم من صراحته هذه في اعتقاده بانطباق الاسلام على مبدأ (الاشتراكية الشيوعية) لم يكن ماركسياً ولكنه كان يؤمن بما دعت اليه المذاهب الاشتراكية من قضايا انسانية واجتماعية ويستنكر استغلال الانسان للانسان، واستئثار طبقة بأخرى، ويدعو الى زوال الاقطاع والرأسمالية وإنصاف العمال ومعاونة الفقراء، وهي جميعاً أفكار انسانية عامة لا يعد كل من قال بها أو دعا اليها شيوعياً. ولكننا لا نعتقد ان الرصافي كان يرغب في أن يقوم في العراق نظام من الحكم على الأسس القائمة في الأقطار الشيوعية، بل لعله كان أول من يهاجمه ويهجو رجاله. لأنه كان مع إيمانه بتلك المبادىء الانسانية التي تدعي الانظمة الاشتراكية بالتمسك بها، يدعو أيضاً الى وحدة العرب القومية، والتمسك بتعاليم الاسلام الأخرى، ويطالب بالحرية السياسية، وحرية الصحافة، وحرية الفكر، وهي أمور لا تقبلها تلك الأنظمة، وتجد فيها تهديداً لكيانها.

وقد أظهرت وصية الرصافي حقيقة إيمانه، وقطعت الشكوك فيها. ومع ذلك لا يفوتنا ان نلاحظ ان وصية الرصافي كتبت في أواخر أيامه، ومن يدري، فلعل بعض الشكوك ساورت الرصافي في شبابه، أو كانت لديه نزعات من الالحاد والتحدي ظهرت آثارها في بعض شعره، كقوله مثلا:

ولست من الذين يرون خيراً   بابقاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت   بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع   من العقلاء أرباب الدّهاء
ولست من الألى وهموا وقالوا   بأنّ الروح تعرج للسماء

(٤٩) هلال ناجي، **القومية والاشتراكية في شعر الرصافي**، بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٠٢
(٥٠) الصفحة (١٠٢) من هذا الكتاب

لأن الأرض تسبح في فضاء   وما تلك السماء سوى الفضاء

ولعله أيضاً، في بعض مراحل حياته، أصبح في حالة من اليأس والاستياء فرأى في الاشتراكية والشيوعية الخلاص الوحيد لبلاده مما هي فيه، ولكنه تراجع عن آرائه هذه كلما تقدمت به السن، وأدرك أن أجله يقترب، فاستعاد ايمانه، واضاء نور الاسلام قلبه مرة أخرى، والله أعلم بالسرائر.

ان شعر الرصافي السياسي والقومي يضعه في القمة، وهو يبدو في معظم قصائده مؤمناً بعروبته، داعياً الى وحدة أمته، ناعياً تأخرها وجمودها. وقد واكب الرصافي جميع الحركات السياسية والقومية التي مرت بها البلاد العربية منذ مطلع شبابه حتى يوم وفاته، وكان له في كل قضية رأي، وفي كل حركة صوت، وفي كل مقام مقال.

ومع ذلك فقد أُخذت عليه بعض المواقف السلبية مثل مسايرة الاتحاديين في بداية عهدهم، ولكنه هاجمهم فيما بعد حينما انحرفوا عن مبادئهم، ووقفوا من العرب موقفاً غير عادل. وأخذ على الرصافي شجبه المؤتمر العربي في باريس، وأهم من ذلك كله شجبه الثورة العربية التي كان له فيها رأي خاص، وسكوته عن إعدام جمال باشا لأحرار العرب، وتقلبه في الرأي بمدح الملك فيصل ونوري السعيد وهجائهما. كما أخذ عليه سكوته عن الاستعمار الايطالي في ليبيا وظلم شعبها لمدة طويلة. وخلوّ شعره من ذكر المشكلة الفلسطينية وثورات أبنائها العرب، وأخصها ثورة سنة ١٩٣٦ على الانكليز، مع أن أخبار هذه الثورة ملأت دنيا العرب وشغلت العالم، ثم سكوته عن وعد بلفور العدواني الذي لم يرد له ذكر في شعره الكثير الذي هاجم فيه الأمة التي ينتمي إليها بلفور.(٥١) وكذلك قلة ما نظمه في الاستعمار الفرنسي ومظالمه في سورية، على الرغم من تحذيره العرب من مطامع فرنسا فيها عندما عقد المؤتمر العربي الأول في عاصمتها. ولم يتطرق الرصافي في شعره الى ذكر الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ ضد الانكليز الذين طالما هاجمهم بعد ذلك في شعره بلا هوادة.

وللرجل ـ كما قال السحرتي ـ ظروفه الخاصة وحالاته النفسية التي لا ندري بها.(٥٢) ولكن للرصافي، الى جانب هذه المواقف السلبية، مواقف إيجابية رائعة تفوقها وتطغى عليها. والمرء لا يحاسب على سكوته عن موضوع بل إنّه يحاسب على ما قاله، وما قاله الرصافي كثير يضمن له مكانة خالدة في تاريخ الأدب العربي ليس في العصر الحديث وحده بل في جميع عصوره.

نجدة فتحي صفوة

(٥١) أنظر مثلا: هلال ناجي، المرجع سالف الذكر، ص ١٠٧
(٥٢) مصطفى عبد اللطيف السحرتي، المرجع سالف الذكر، ص ٢٨٠.

خَواطر وَأفكار

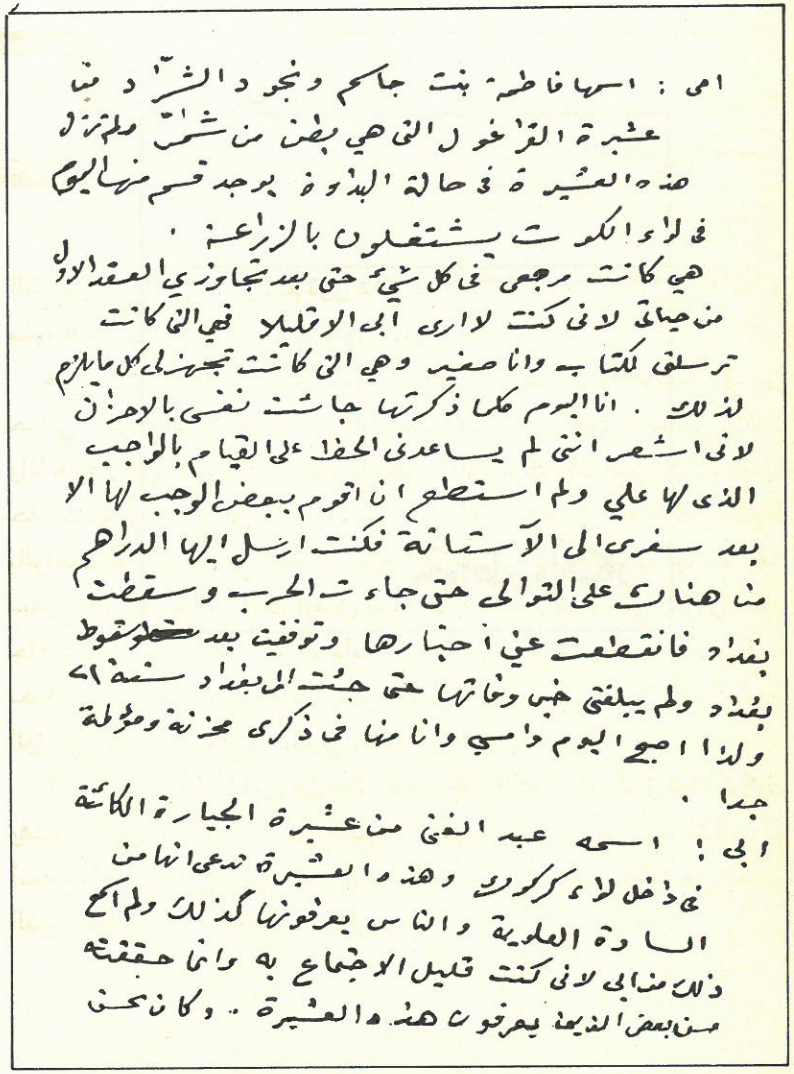

امي : اسمها فاطمة بنت جاسم ونجود الشراد من
عشيرة القراغول التي هي بطن من شمر ولم تزل
هذه العشيرة في حالة البداوة يوجد قسم منها اليوم
في لواء الكوت يشتغلون بالزراعة .
هي كانت مرجعي في كل شيء حتى بعد تجاوزي العقد الاول
من حياتي لاني كنت لا ارى ابي الا قليلا فهي التي كانت
ترسلني لكتاب وانا صغير وهي التي كانت تجهز لي كل ما يلزم
لذلك . انا اليوم كلما ذكرتها جاشت نفسي بالاحزان
لاني اشعر انني لم يساعدني الحظ على القيام بالواجب
الذي لها علي ولم استطع ان اقوم ببعض الوجب لها الا
بعد سفري الى الآستانة فكنت ارسل اليها الدراهم
من هناك على التوالي حتى جاءت الحرب وسقطت
بغداد فانقطعت عني اخبارها وتوفيت بعد سقوط
بغداد ولم يبلغني خبر وفاتها حتى جئت الى بغداد سنة ٢١
ولذا اصبح اليوم وامسي وانا منها في ذكرى محزنة ومؤلمة
جدا .
ابي : اسمه عبد الغني من عشيرة الجبارة الكائنة
في داخل لواء كركوك وهذه العشيرة تدعي انها من
السادة العلوية والناس يعرفونها كذلك ولم اسمع
ذلك من ابي لاني كنت قليل الاجتماع به وانما حققته
من بعض الذين يعرفون هذه العشيرة . وكان نحن

الرصافي بقلمه

أمي: اسمها فاطمة بنت جاسم ونجود الشرّاد من عشيرة القراغول التي هي بطن من شمّر ولم تزل هذه العشيرة في حالة البداوة يوجد قسم منها اليوم في لواء الكوت يشتغلون بالزراعة.

هي كانت مرجعي في كل شيء حتى بعد تجاوزي العقد الأول من حياتي لأني كنت لا أرى أبي إلّا قليلا فهي التي كانت ترسلني لكتاب وأنا صغير وهي التي كانت تجهّز لي كل ما يلزم لذلك. أنا اليوم كلما ذكرتها جاشت نفسي بالأحزان لأني أشعر انني لم يساعدني الحظ على القيام بالواجب الذي لها عليّ ولم أستطع أن أقوم ببعض الوجب لها إلّا بعد سفري إلى الآستانة فكنت أرسل إليها الدراهم من هناك على التوالي حتى جاءت الحرب وسقطت بغداد فانقطعت عني أخبارها وتوفيت بعد سقوط بغداد ولم يبلغني خبر وفاتها حتى جئت الى بغداد سنة ٢١ ولذا أصبح اليوم وأمسي وأنا منها في ذكرى محزنة ومؤلمة جدا.

أبي: اسمه عبد الغني من عشيرة الجبارة الكائنة في داخل لواء كركوك وهذه العشيرة تدّعي أنها من السادة العلوية والناس يعرفونها كذلك ولم أسمع ذلك من أبي لأني كنت قليل الاجتماع به وإنما حققته من بعض الذين يعرفون هذه العشيرة. وكان محق.

خواطر وأفكار

الخاطر هو الهاجس الذي يقع في خلدك عفواً بلا قصد، أو بداعٍ من دواعي التفكير. وأكثر ما يكون اذا كنت معتزل الخلطاء منفرداً عنهم. ولو اني من أول عهدي بالتفكير جمعت خواطري لكانت شيئاً كثيراً.

وها أنا اليوم أثبت لك في هذه الكرّاسة شيئاً مما عنّ أو يعنّ لي من الخواطر. وأضيف إليها بعض ما صادفته في كتب الأدب من المسائل التي لها شأن في الأدب أو في غيره من أمور الحياة.

وإن الذي دعاني إلى إثباتها هنا هو أنها حرة طليقة في سنوحها من كل قيد فلا أرمي من ورائها الى غاية خاصة، ولا أريد بها إقناع مخالف أو إرضاء موافق. بل أنا منها مثلما هي مني حر طليق فلا أماري بها ولا أداجي. وإذا كانت كذلك فعسى أن يجد فيها من يطالعها من أهل الحرار فائدة. وإلا فكم سودت المحابر قبلها من قراطيس كانت في الناس أقلّ نفعاً من نقع الكراديس. فإليكها كما هي بلا ترتيب ولا تبويب.

الكاتب

معروف الرصافي ٣٠ آب ١٩٤٠ الفلوجة

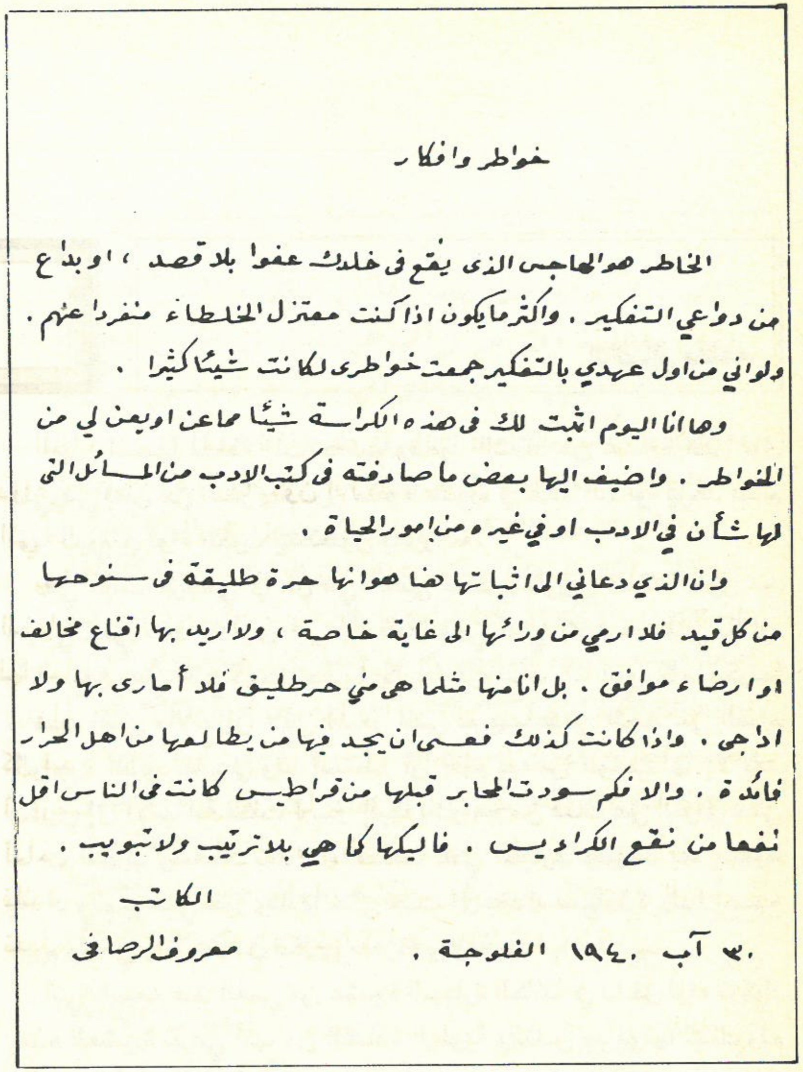
خواطر وافكار

الخاطر هو الهاجس الذى يقع فى خلدك عفوا بلا قصد ، او بداع من دواعي التفكير . واكثر مايكون اذا كنت معتزل الخلطاء منفردا عنهم . ولواني منذ اول عهدي بالتفكير جمعت خواطرى لكانت شيئا كثيرا .

وها انا اليوم اثبت لك فى هذه الكراسة شيئا مما عن اويعن لي من الخواطر . واضيف اليها بعض ما صادفته فى كتب الادب من المسائل التى لها شأن فى الادب او فى غيره من امور الحياة .

وان الذى دعاني الى اثباتها هنا هو انها حرة طليقة فى سنوحها من كل قيد فلا ارمي من ورائها الى غاية خاصة ، ولا اريد بها اقناع مخالف او ارضاء موافق . بل انا منها مثلما هي مني حر طليق فلا أماري بها ولا اداجي . واذا كانت كذلك فعسى ان يجد فيها من يطالعها من اهل الحرار فائدة . والا فكم سودت المحابر قبلها من قراطيس كانت فى الناس اقل نفعا من نقع الكراديس . فاليكها كما هي بلا ترتيب ولا تبويب .

الكاتب

٣٠ آب ١٩٤٠ الفلوجة . معروف الرصافي

٧)

لوكنت مصورا

لوكنت مصورا لصورت محمدا رسول الله جالسا في مسجده بالمدينة وحوله اصحابه وقد جلست الى جنبه السيدة عائشة ام المؤمنين ملاصقة له متكئة عليه واضعة خدها الايمن على منكبه الايسر وقد طوقته بيدها اليمنى فوضعتها على منكبه الايمن وهي في هذه الحالة تنظر الى الحبشة يرقصون في المسجد النبوي ويلعبون والنبي ينظر اليها تارة واليهم اخرى متابعة لها فيما ارادت من النظر الى هذا المرقص الشريف .

هذه هي الصورة الحسنى التي اردت تصويرها لوكنت مصورا ماهرا اذن لأتيت بمعجزة غراء من معاجز الفنون الجميلة . و لأظهرت الى عالم البداعة لوحاً بديعاً من الواح الحب والجمال يساير اللوح المحفوظ في العظمة والجلال ، ولكشفت الستار عن سر عظيم من اسرار الحب النبوي الذي اشتركتْ في تجبيله الارض والسماء

لو كنت مصوراً

لو كنت مصوراً لصورت محمداً رسول الله جالساً في مسجده بالمدينة وحوله أصحابه وقد جلست إلى جنبه السيدة عائشة أم المؤمنين ملاصقة له متكئة عليه واضعة خدها الأيمن على منكبه الأيسر وقد طوقته بيدها اليمنى فوضعتها على منكبه الأيمن وهي في هذه الحالة تنظر الى الحبشة يرقصون في المسجد النبوي ويلعبون والنبي ينظر إليها تارة وإليهم أخرى متابعة لها فيما أرادت من النظر الى هذا المرقص الشريف.

هذه هي الصورة الحسنى التي أردت تصويرها لو كنت مصوراً ماهراً إذن لأتيت بمعجزة غراء من معاجز الفنون الجميلة. ولأظهرت إلى عالم البداعة لوحاً بديعاً من ألواح الحب والجمال يساير اللوح المحفوظ في العظمة والجلال، ولكشفت الستار عن سر عظيم من أسرار الحب النبوي الذي اشترَكتْ في تبجيله الأرض والسماء.

الحق والباطل

اذا انسلخنا من أنفسنا واندمجنا في حقيقة الوجود الكلّي المطلق اللانهائي علمنا أن الحق كلمة ترادف الممكن وأن الباطل كلمة ترادف المحال. وعندئذ قلنا: كل ما وقع في هذا الوجود فهو حق إذ لو كان باطلاً لما وقع. وكل ما لم يقع فهو باطل لأنه مستحيل الوقوع فلو كان حقاً لما امتنع وقوعه.

فالحق هو الممكن والباطل هو المحال. وإذا ثبتت حقية كل ما وقع في عالم الكون والفساد انتفى الحسن والقبح من الوجود الكلي المطلق اللانهائي. وتبيّن لنا أن ليس في الدنيا باطل. وهذا هو الذي تقتضيه الآية الواردة في سورة هود من القرآن: «وما من دابّة في الأرض إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم».

إذ لا ريب أن الله الذي هو على صراط مستقيم اذا كان هو الآخذ بناصية كل دابة فكان هو القائد لها في جميع أحوالها كانت كل دابة في جميع أحوالها على صراط مستقيم أيضاً بحكم الضرورة. وهذا هو معنى ما قلنا من أنه ليس في الدنيا باطل. وان الباطل هو المحال الممتنع الوقوع. فإذا قلنا لشيء واقع بأنه باطل كان معنى ذلك أنه باطل بالنسبة إلينا لأنه مخالف لما نريده ونألفه لا بالنسبة إلى الحقيقة المطلقة. فكل ما نعتقد ببطلانه من الأباطيل الواقعة لا يكون بطلانه إلا نسبياً لا حقيقياً.

بقي هنا شيء يجب التنبيه إليه وهو أنه جاء في الآية استعمال كلمة «دابة» ولكن ليس المراد ان هذا الحكم أعني «الأخذ بالناصية» خاص بالمخلوقات الحية. كلا! بل الله تعالى آخذ بناصية كل شيء حتى القشة والمددة. وانما عبَّر في الآية بالدابة لأنه في مقام بيان أحوال المخلوقات الحية لا غير.

والمفهوم بالبداهة من هذه الآية أن لفظ الجلالة «الله» هو لفظ يرادف بمعناه الغريزة والطبيعة. إذ لا ريب أن جميع الأشياء من المخلوقات الحية وغير الحية خاضعة لحكم الطبيعة والجبلة التي هي مجبولة عليها،

فالطبيعة الجبلية آخذة بناصية كل شيء. وقد جاء لفظ الجلالة مرادفاً للطبيعة في كثير من الآيات القرآنية كما هو ظاهر لكل من قرأ القرآن بتأمل وتدبّر.

(الحق والباطل)

اذا انسلخنا من انفسنا واندمجنا فى حقيقة الوجود الكلي المطلق اللانهائي علمنا ان الحق كلمة ترادف الممكن وان الباطل كلمة ترادف المحال. وعندئذ قلنا : كلما وقع فى هذا الوجود فهو حق اذ لو كان باطلا لما وقع . وكلما لم يقع فهو باطل لانه مستحيل الوقوع فلو كان حقا لما امتنع وقوعه .

فالحق هو الممكن والباطل هو المحال . واذا ثبتت حقية كلما وقع فى عالم الكون والفساد انتفى الحسن والقبح من الوجود الكلي المطلق اللانهائي . وتبين لنا ان ليس فى الدنيا باطل . وهذا هو الذي تقتضيه الآية الواردة فى سورة هود من القرآن : « وما من دابة فى الارض الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم » .

اذ لا ريب ان الله الذي هو على صراط مستقيم اذا كان هو الآخذ بناصية كل دابة فكان هو القائد لها فى جميع احوالها كانت كل دابة فى جميع احوالها على صراط مستقيم ايضا بحكم الضرورة . وهذا هو معنى ما قلنا من انه ليس فى الدنيا باطل . وان الباطل هو المحال الممتنع الوقوع . فاذا قلنا لشيء واقع بانه باطل كان معنى ذلك انه باطل بالنسبة الينا لانه مخالف لما نريده ونألفه لا بالنسبة الى الحقيقة المطلقة . فكل ما نعتقد ببطلانه من الاباطيل الواقعة

في عالم الأدب

أرسل إليّ من خارج العراق كتاب يسألني مرسله: هل تؤمن بزعامة مصر الأدبية للشرق العربي؟ فكتبت اليه الجواب الآتي:

إن الزعامة في العلم والأدب لا يمكن أن تكون لقطر على آخر أو لبلد على بلاد أخرى إلّا اذا كان للأول على الثاني زعامة في السياسة أيضاً. ذلك لأن القطر أو البلد الذي له زعامة سياسية يكون مركزاً يأوي إليه من الأطراف كل ذي علم وأدب فيجتمع فيه النبوغ العلمي والأدبي وبذلك يتسنّى له أن يقود ما يتبعه من البلاد الى ما شاء من علم وأدب. وتلك هي الزعامة التي تحصل له في العلم والأدب مع زعامته السياسية بحكم الضرورة.

وليست مصر كذلك بالنسبة الى الشرق العربي حتى تكون لها الزعامة الأدبية عليه. نعم! لا ينكر أن مصر قد سبقت الشرق العربي بنهضتها الأخيرة في العلم والأدب سبقاً زمانياً ولكنها لم تنشر فيه ثقافة ولم تعبّد فيه للعلم والأدب طريقا. وإنما أرسلت إليه بقصد التجارة كتباً وجرائد ومجلات. وبالإجمال أرسلت إليه مطبوعات. ولا ينكر أن الشرق العربي انتفع بمطبوعاتها ولكن ذلك لا يجعل لها عليه زعامة في العلم ولا في الأدب.

فإن جاز أن يجعل ذلك لها زعامة أدبية على الشرق العربي جاز أن تشاركها في تلك الزعامة بيروت لأنها أرسلت بقصد التجارة أيضاً إلى الشرق العربي ما أرسلته مصر من المطبوعات وإن كان ذلك بصورة مصغرة بالنسبة إلى مصر.

وأيضاً إن الزعامة الأدبية لا يمكن أن تكون إلّا نتيجة من نتائج الاستقلال الأدبي. وليس في مصر ولا في غيرها من يستطيع أن يدّعي أن مصر اليوم قد تقدّمت في الأدب إلى حيث أصبحت مستقلة بآدابها. وهل للأدب المصري اليوم طابع خاص يمتاز به عن الأدب العربي في غير مصر من بلاد العرب أو من بلاد الشرق. كلا!

وإنما مصر اليوم كغيرها من بلاد الشرق العربي لم تزل في دور التقليد

للغرب في العلم والأدب. فالحقيقة التي لا ينبغي للعاقل المفكر أن يشكّ فيها هي أن مصر اليوم كغيرها من بلاد العرب سالكة طريق التقليد في العلم والأدب تحت زعامة الغرب. خصوصاً في الأدب الروائي والمسرحي فإنها فيهما مقلّدة للغرب تقليداً أعمى لم تتحقق حتى الآن صحة موافقته للذوق العربي وللحياة الشرقية العربية. هذا بقطع النظر عن الصبغة الإسلامية الظاهرة في الحياة العربية، فإن هذه الصبغة تنبو كل النبو عن الأدب المسرحي الذي أخذت مصر اليوم تمشي فيه على آثار الغرب.

وخلاصة القول أن مصر اليوم في طور التقليد. وكل ما هناك هو أن الشوط الذي جرته مصر أبعد من الشوط الذي جراه غيرها من بلاد الشرق العربي. وليس في ذلك ما يجعل لها زعامة على غيرها.

هذا ما نقوله في الزعامة الأدبية إذا أضيفت الى قطر من الأقطار أو إلى بلد من البلاد. أما إذا أضيفت إلى فرد من الناس فمن البعيد أن يتفق الناس عليها فيه وأن يعترفوا بها له. وهذا المتنبي مثلاً قد ملأ الدنيا في زمانه وشغلها بشعره كما قالوا ومع ذلك لم يعترف له أهل زمانه بزعامته عليهم في الشعر. فالكلام في هذه الزعامة الأدبية الفردية أو الشخصية لا يأتي بنتيجة والجدال فيها لا يصل إلى نهاية. اللهم إلا إذا أيّدتها القوة فإنها حينئذ تكون كزعامة الفرد السياسية التي تدعمها القوة فيعترف بها الناس له. وقد تقتضيها المصلحة العامة أو الخاصة.

نسمع اليوم من مصر صوتاً يدعو الى التجديد في الأدب، غير أنّا نسمع جعجعة ولا نرى طحناً. فلا يأتينا أصحاب ذلك الصوت إلا بما يجعلنا نعتقد أنهم يدعون الى تقليد الأدب الغربي. فلو قال هؤلاء نحن ندعو الى التقليد لكانوا في هذا القول أصدق منهم فيما يقولونه من الدعوة الى التجديد.

اذا جاءنا الأديب بما يصوِّر لنا صور الحياة المحيطة به تصويراً موصلاً الى الغاية التي ينزع إليها في أدبه جاز أن نقول عنه بأنه مجدد في أدبه غير مقلّد. أي أنه لا يأتيك بصورة طبق الأصل من أدب عفته الأيام ومن حياة غيرها الزمان كما يفعل المقلدون من الأدباء. أما أساليب الكلام في الأدب فلا تحدّها حدود ثابتة مستقرة غير متحولة، بل هي

تختلف باختلاف الشخصيات الأدبية. فمن ظهر في أسلوبه أثر محسوس من شخصيته الأدبية بحيث يمتاز به عن غيره من الأساليب، جاز أن نقول عنه بأنه مجدد في أسلوبه غير مقلّد. أي انك لا تحس من أسلوبه بشخصيـة بعيدة عنه تمثّل نفساً غير نفسه وحياة غير حياته، كما هو الحال في أساليب المقلدين.

وسواء أكان التجدد هو هذا أم غيره يجب على دعاة التجدد أن يبيِّنوا لنا ماذا يريدون به، فان الظاهر من كلامهم هو أنهم يريدون منا باسم التجدد أن نقفو أثر الأدب الغربي، أي أن نقلّد في أدبنا أدباء الغرب.

على أن الشرق العربي كله اليوم ساعٍ الى هذا التقليد، لا في الأدب وحده، بل في كل شيء من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر. وهل تقليد الأمم بعضها بعضا في الأدب جائز؟! هذا سؤال لا يستطيع أحد أن يجيب عليه بنعم. لأن أدب كل أمة ليس إلّا عبارة عن حالتها الروحية المتكونة من العقل والفطنة والشعور والعاطفة والأخلاق والعادات والدين والخرافات والبيئة والتاريخ. وهذه كلها أمور تختلف اختلافاً كلياً باختلاف الأمم. وقد تختلف روحيات الأمم بنسبة بعضها الى بعض حتى يبلغ اختلافها التناقض. فلا يحسن من أمة أن تقلّد في أدبها أمة أخرى إلّا مقدار ما يحسن رجل يمشي على الأرض أن يقلّد بهلواناً يلعب على الحبل. وبقدر ما يكون هذا التقليد مضحكاً ضحكاً سخرياً يكون تقليد أمة في الأدب أمة أخرى مضحكاً أيضاً.

ولا تنس أن الأدب يشمل بمعناه العام الأغاني والمراقص والمناحات أيضاً، إذ لا ريب أن الشعر هو أهم ركني الأدب. والشعر بأوزانه وقوافيه لم يكن إلّا للغناء والرقص، أو للرثاء والنواح. فالتقليد فيه أقبح والخروج به عن الطبع أشوه. وخلاصة القول أن التقليد في الأدب إذا بلغ غايته، معاذ الله، مسخ الأمّة مسخاً، وقلب كيانها القومي رأساً على عقب.

وليس معنى هذا أن الأدب العربي يجب أن يبقى على ما كان عليه في القـديم إلى يوم القيـامـة. بل أدب الأمة العربية مثلها خاضع لقانون النشوء والارتقاء، فكلما ارتقت ارتقى معها وكيفما تطورت تطور معها.

وإنما معناه ان التقليد لا يحسن أن يكون من الأمور التي يتطور بها الأدب عند الأمم.

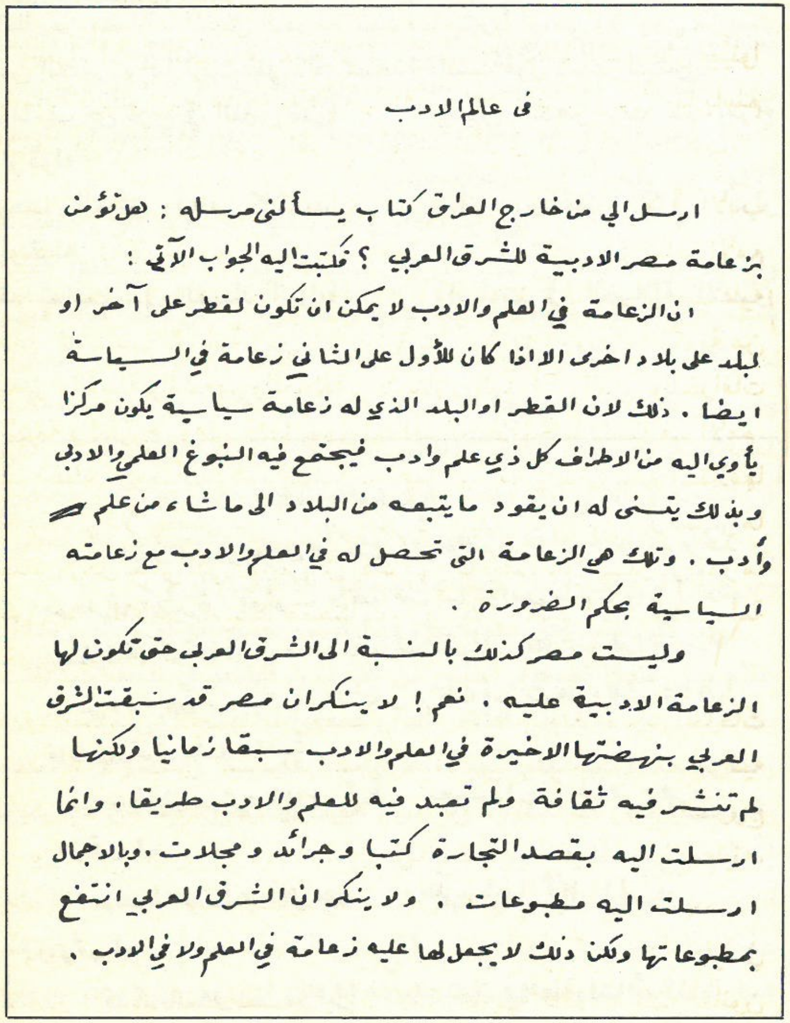

فى عالم الادب

ارسل الي من خارج العراق كتاب يسألني مرسله : هل نؤمن بزعامة مصر الادبية للشرق العربي ؟ فكتبت اليه الجواب الآتي :

ان الزعامة في العلم والادب لا يمكن ان تكون لقطر على آخر او لبلد على بلاد اخرى الا اذا كان للأول على الثاني زعامة في السياسة ايضا . ذلك لان القطر او البلد الذي له زعامة سياسية يكون مركزا يأوي اليه من الاطراف كل ذي علم وادب فيجتمع فيه النبوغ العلمي والادبي وبذلك يتسنى له ان يقود ما يتبعه من البلاد الى ما شاء من علم وأدب . وتلك هي الزعامة التى تحصل له في العلم والادب مع زعامته السياسية بحكم الضرورة .

وليست مصر كذلك بالنسبة الى الشرق العربي حتى تكون لها الزعامة الادبية عليه . نعم ! لا ينكر ان مصر قد سبقت الشرق العربي بنهضتها الاخيرة في العلم والادب سبقا زمانيا ولكنها لم تنشر فيه ثقافة ولم تعبد فيه للعلم والادب طريقا . وانما ارسلت اليه بقصد التجارة كتبا وجرائد ومجلات . وبالاجمال ارسلت اليه مطبوعات . ولا ينكر ان الشرق العربي انتفع بمطبوعاتها ولكن ذلك لا يجعل لها عليه زعامة في العلم ولا في الادب .

الشعر والحقيقة

ليس الشعر بخيال محض كما يتوهمون، بل الخيال طريق واحد من طرقه الكثيرة، أو ثوب واحد من ثيابه العديدة. وإذا أرادت الحقيقة أن تطلّ من مشارف المنطق الحر فلا تجد لها مشرفاً أسمى ولا أبهى من بيت من الشعر. وإذا أردت على ذلك شاهداً فانشد قول شاعر البشر:

وأشرف من ترى في الناس قدراً ... يعيش الدهرَ عبد فم وفرج

أو قوله:

وحب العيش أعبد كل حر ... وعلّم ساغبا أكل المرار

أو قوله:

قد تمادت على الفساد البرايا ... واستوت في الضلالة الأديان

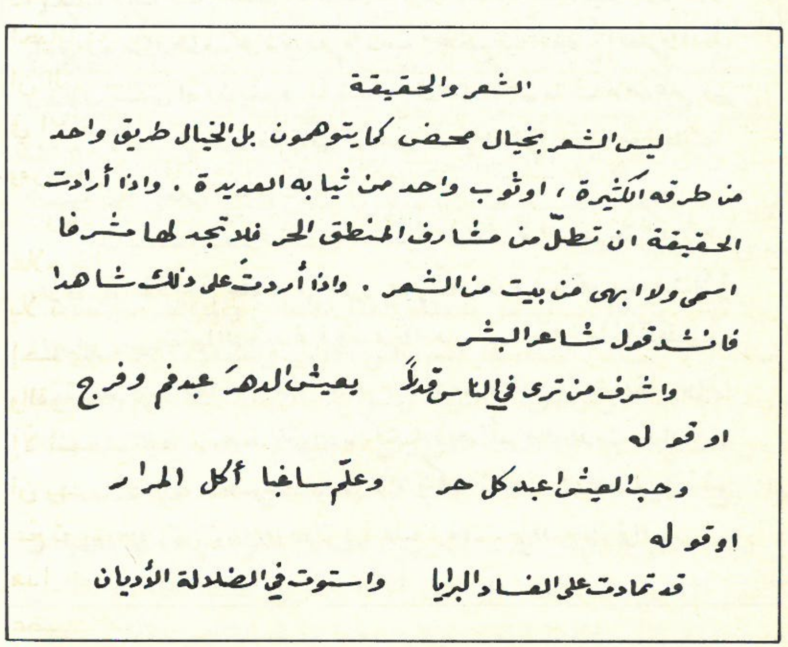
الشعر والحقيقة
ليس الشعر بخيال محض كما يتوهمون بل الخيال طريق واحد
من طرقه الكثيرة ، او ثوب واحد من ثيابه العديدة . واذا أرادت
الحقيقة ان تطلّ من مشارف المنطق الحر فلا تجد لها مشرفا
اسمى ولا ابهى من بيت من الشعر . واذا أردتَ على ذلك شاهدا
فانشد قول شاعر البشر
واشرف من ترى في الناس قدراً ... يعيش الدهرَ عبدَ فم وفرج
او قوله
وحب العيش اعبد كل حر ... وعلّم ساغبا أكل المرار
او قوله
قد تمادت على الفساد البرايا ... واستوت في الضلالة الأديان

التصفيق

كان العرب في القديم إذا رأوا أمراً يكرهونه أو سمعوا كلاماً ينكرونه صفقوا استنكاراً له وتعجباً منه. كما يدلّ على ذلك ما فعله كفّار قريش لما قال لهم رسول الله وهم عند عمه أبي طالب: «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات. فقال رسول الله: «تقولون لا إله إلّا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجب.

وقد صار الناس اليوم يستعملون التصفيق للاستحسان وللتعظيم والإجلال، كما يفعلون ذلك اليوم في مجتمعاتهم اذا استحسنوا كلاماً سمعوه أو استقبلوا رجلاً عظيماً أجلّوه واحترموه. إلّا أن هذه العادة فيهم حديثة، ولم يكونوا يعرفونها من قبل وإنما انتقلت إليهم من أهل الغرب. وهم وان كانوا قد تعودوها إلّا أنهم لم يزالوا يخطئون مواقع استعمالها أحياناً فلا يصيبون الغرض المطلوب منها كما يصيبه أهل الغرب. حتى ان التصفيق الذي نراه ونسمعه في مجتمعاتهم وحفلاتهم يكون مصدره في الأكثر من رجل واحد إذا صفّق تبعه الجمهور بالتصفيق بلا شعور، ومن دون أن يفتكروا أن هناك ما يستحق التصفيق أو لا.

ولقد كثُر التصفيق عندنا على هذا النحو حتى أنه لو سألني سائل علام يدلّ عندك تصفيق الناس لمن ينشدون الشعر في الحفلات؟ لقلت بلا تردد: على سخافة الشعر الذي صفّقوا له وذلك لأني حضرت مرة إحدى حفلاتهم فقام فيها شاعر وأنشد قصيدة. واستمر في إنشاده والقوم ساكتون مستمعون. وقد مرّت أبيات تستحق شيئاً من التصفيق إلّا أنهم لم يصفّقوا. فلما أنشد قوله:

ان يهدم العربي حوض جدوده ... غضبت عليه يعرب ونزار

عجّ تصفيقهم فشق الهواء حتى بلغ عنان السماء. وما أدري هل أخبرهم هذا الشاعر بأمر عجيب لا يعلمونه إذ قال لهم من هدم بيت جدوده غضبت عليه جدوده.

التلقيب بالاضافة الى الدين

لم نجد في أسماء الأولين من المسلمين اسماً مضافاً الى الدين كشمس الدين وبدر الدين وفخر الدين ونحو ذلك. فكنت أسأل في أي عصر من تاريخ الإسلام حدثت هذه التسمية. ثم رأيت في تاريخ الخلفاء للسيوطي ما نصّه: «وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة ولّى المقتدي بأمر الله (الخليفة العباسي) أبا شجاع محمد بن الحسين الوزارة ولقّبه ظهير الدين وأظن ذلك أول حدوث التلقيب بالإضافة الى الدين».

أقول يجب أن نعتبر ذلك مبدأ لظهور الرياء الديني في الأسماء، لأن مظاهر الرياء الديني كثيرة إلّا أنه لم يظهر في الأسماء إلّا في هذا العهد. ومما يدعو إلى الأسف أن ذلك خاص بالمسلمين لأنّا لم نجد في جميع أهل الأديان اسماً مضافاً الى الدين سوى المسلمين. ولا ريب أن إثم هذا النوع من الرياء الديني على المقتدي بأمر الله الذي أحدثه. ورحم الله أبا العلاء المعرّي القائل:

أرائيك فليغفر لي الله زلّتي فديني ودين العالمين رياء

ابراهيم واسماعيل

لم نجد في العرب الأولين في عصر الجاهلية من تسمّى باسم ابراهيم ولا اسماعيل. حتى ولا في العرب المسلمين الذين أسلموا في عهد رسول الله. وإنما وقعت التسمية بهذين الاسمين عندهم بعد صدر الإسلام القائل بأبوة ابراهيم واسماعيل للعرب العدنانية والذي ينسب بناء الكعبة التي هي بيت أصنام العرب الجاهليين الى ابراهيم.

ولا ريب أن عدم وقوع التسمية بهذين الاسمين في العرب الأولين يدل على أنهم كانوا لا يعرفون أبوّة ابراهيم واسماعيل لهم. وإلّا فمن البعيد أن لا يتسمّوا بهما وهم يعلمون أن جدّهم الأعلى ابراهيم أو اسماعيل.

والذي نراه أن أبـوّة ابراهيم للعرب ما هي إلّا دعوى ادّعاها قصي ليتـوصّـل بهـا إلى أخذ ولاية البيت من خزاعة ونقلها الى قريش. وقد

أوضحنا ذلك وشرحناه في كتابنا «الشخصية المحمدية» عند الكلام على أبوّة ابراهيم للعرب، فلا حاجة الى إعادة ذكره هنا.

طه ويس

مما يدل على أن المسلمين في هذا العصر هم في خبط وخلط من أمورهم الدينية تسميتهم أبناءهم بطٰـه ويٰـس. وقد حملهم على هذه التسمية المضحكة توهمهم أن طـه ويـس هما من أسماء محمد رسول الله.

والظاهـر أن وهمهم هذا ناشىء من وقـوع الخـطاب في أول سورة طٰـه موجهاً الى رسول الله في قوله تعالى «طـه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» فتوهموا أن (طـه) منادى، أي: يا طـه. ولما كان المخاطَب بعد هذا النداء هو رسول الله ظنّوا أن معناه يا محمد، وأن طـه اسم من أسمائه. وهذا لعمر الله جهلٌ بالقرآن فاضح وعَمَهٌ في البصائر طامس.

من المعلوم أن طـه ويـس من فواتح السور القرآنية مثل حم وطس والم وغيرها من حروف الهجاء المفتتح بها بعض سور القرآن. وقد تكلّم علماء التفسير عن هذه الحروف واختلفوا في المراد منها إلى أقوال شتى ولم يقل أحد منهم أن طـه ويـس هما من أسماء النبي محمد. كما أن علمـاء السيرة النبوية تكلموا عن أسماء رسول الله وعددوها وشرحوها وأطالوا الكـلام فيهـا ولم يذكروا فيها طـه ولا يـس حتى جاء عوام المسلمين في هذا العصر فتوهموا أنهما من أسماء رسول الله كما يُفهم ذلك من قولهم في أغانيهم الدينية: «حبكم يا آل طـه...»

أما عهد هذه التسمية المضحكة فليس ببعيد. ولا أظنه يرجع إلى أكثر من عصر أو عصرين. لأني لم أصادف في كتب الأولين المؤلفة في سوالف العصور الاسلامية ذكر رجال تسمّوا بهذين الإسمين. لا في كتب الأدب ولا في كتب التاريخ. وإذا حسنت التسمية بفواتح السور القرآنية عند عامة المسلمين فلماذا اقتصروا منها على التسمية بطـه ويـس. ولماذا لم يتسموا بحم وطس وغيرهما من فواتح السُّوَر الأخرى. غير أني أعرف رجـلاً من المعلمين في بغداد اسمه يحيى قد لقب نفسه بإحدى فواتح السور (ق) فالناس يعرفونه باسـم يحيى ق. وهذا من المضحكات. وما

يدريك لعلنا سنسمع باســم ابراهيم ص وباســم اسمعيل ن. ولله في خلقه شؤون.

التلقيب بالاضافة الى الدين

لم نجد في اسماء الاولين من المسلمين اسما مضافا الى الدين كشمس الدين وبدر الدين و فخر الدين ونحو ذلك. فكنت اسأل في اي عصر من تاريخ الاسلام حدثت هذه التسمية. ثم رأيت في تاريخ الخلفاء للسيوطي ما نصه: «وفي سنة ست وسبعين و اربعمائة ولى المقتدي بامر الله (الخليفة العباسى) اباشجاع محمد بن الحسين الوزارة ولقبه ظهير الدين واظن ذلك أول حدوث التلقيب بالاضافة الى الدين». اهـ.

اقول يجب ان نعتبر ذلك مبدأ لظهور الرياء الديني في الاسماء، لان مظاهر الرياء الديني كثيرة الا انه لم يظهر في الاسماء الا في هذا العهد. ومما يدعو الى الاسف ان ذلك خاص بالمسلمين لانا لم نجد في جميع اهل الأديان اسما مضافا الى الدين سوى المسلمين.

ولا ريب ان اثم هذا النوع من الرياء الديني على المقتدى بامر الله الذي احدثه. ورحم الله ابا العلاء المعري القائل

أرائيك فليغفر لي الله زلّتي ... فديني ودين العالمين رياء

إله بني اسرائيل

لو قيل لي أترضى أن يكون إله بني اسرائيل رباً لك؟ لقلت بلا تردد: لا! ذلك لأن إله بني اسرائيل المسمى عندهم (يهوا) إنما هو إله ورب لهم وحدهم دون غيرهم من البشر. فليس هو إلهاً عاماً لجميع الكائنات. ولا ريب أن رباً كهذا لا تكون قدرته عامة كما لا تكون مشيئته عامة أيضاً. فهو رب عاجز غير مطلق القدرة ولا مطلق الارادة. فكيف أرضاه لي رباً.

ثم ان (يهـوا) ليس رباً لبني اسرائيل في كل مكان، بل هو ربهم في الأرض الموعودة فحسب، كما يعتقدون. وليس لهم أن يعبدوه إلا في الأرض الموعودة، وعلى ترابها فقط. ولذا كان من دينهم أن أحدهم اذا فارق الأرض الموعودة حمل معه شيئاً من ترابها لكي يعبد ربه عليه في غيرها.

ومن هنا وافقت الشيعة اليهود في صلاتهم على تربة الحسين فهم يحملون معهم هذه التربة أينما ذهبوا فيصلون عليها ويعظمونها بتقبيلها ووضعها على رؤوسهم. وأما قول بعضهم في تعليل صلاتهم على التربة «ان الصلاة لا تجوز الّا على وجه الأرض وأديمها» فكذب وتمويه، أولاً لا يقوم لهم على ذلك دليل مقبول، اذ ليس في الآيات القرآنية ولا في الأحاديث النبوية ولا فيما جرى به العمل في صلاة النبي وأصحابه والتابعين من بعده ما يدل على أن الصلاة لا تجوز الّا على وجه الأرض وأديمها. بل هناك ما يدل على خلافه فان النبي كان يصلي بنعليه فكانت قدماه لا تمسان أديم الأرض وهو قائم في صلاته، لأن نعليه تحولان دون ذلك. والقيام ركن من أهم أركان الصلاة، وهو أفضل من السجود لقوله تعالى قوموا لله قانتين ولأن ذكره القرآن الذي هو أفضل الأذكار.

ثانياً أن الشيعة يضعون التربة أمامهم ويسجدون عليها في صلاتهم وان كانوا يصلّون في العراء على وجه الأرض وأديمها. كما شاهدت ذلك منهم مرراً.

ثالثاً لو كانت الصلاة لا تجوز الّا على وجه الأرض وأديمها، كما يقولون، لجاز للمصلّي أن يأخذ شيئاً من تراب أيّة أرض شاء فيصلي

عليه. وليس الأمر كذلك عندهم. وإنما يصلون على التربة المعمولة من تربة الحسين ليس إلا. على أن الذين يصنعون هذه الترب يكذبون على الناس في دعوى انهم لم يصنعوها الاّ من تربة الحسين، ومهما يكن، فإن هذه التربة تذكرنا بالعهد الجاهلي يوم كان أحدهم يعمد الى حجر فيأخذه ليعبده ثم اذا رأى أحسن منه أخذه وترك الأول. فسبحان من أرسل محمداً لنبذ الأصنام ثم جعل امته يتقربون بها الى الله.

آله بني اسرائيل

لو قيل لي أترضى ان يكون آله بني اسرائيل رباً لك؟ لقلت بلا تردد: لا! ذلك لأن آله بني اسرائيل المسمى عندهم (يهوا) انما هو آله ورب لهم وحدهم دون غيرهم من البشر. فليس هو آلهاً عاما لجميع الكائنات. ولا ريب ان رباً كهذا لا تكون قدرته عامة كما لا تكون مشيئته عامة ايضا. فهو رب عاجز غير مطلق القدرة ولا مطلق الارادة. فكيف ارضاه لي رباً.

ثم ان (يهوا) ليس رباً لبني اسرائيل في كل مكان، بل هو ربهم في الارض الموعودة فحسب، كما يعتقدون. وليس لهم ان يعبدوه الا في الارض الموعودة، وعلى ترابها فقط. ولذا كان من دينهم ان احدهم اذا فارق الارض الموعودة حمل معه شيئاً من ترابها لكي يعبد ربه عليه في غيرها.

ومن هنا وافقت الشيعة اليهود في صلاتهم على تربة الحسين فهم يحملون معهم هذه التربة اينما ذهبوا فيصلون عليها ويعظمونها بتقبيلها ووضعها على رؤوسهم. واما قول بعضهم في تعليل صلاتهم على التربة «ان الصلاة لا تجوز الاّ على وجه الارض واديمها» فكذب وتمويه. اولاً لا يقوم لهم على ذلك دليل مقبول، اذ ليس

الأغاني

ان الأغاني بغاياتها المقصودة تناسب المعنويات أكثر من الماديات فهي بأنغامها المطربة لغة تتخاطب بها الأرواح وتتفاهم بها القلوب. ولما كانت في اندفاعاتها بعيدة عن الماديات، كانت أشد تأثيراً في نفوس سامعيها كلما ابتعدوا عند سماعها عن الماديات، وكلما كانوا الى الحالات الروحية أقرب منهم الى غيرها.

ان الموسيقى التي تفيض علينا الحانها من أفواه الاجراء أو من أكفهم تخسر نصف قيمتها المعنوية بسبب أنها لم تندفع إلينا من منبعها إلا بالماديات. لأنها مأجورة، ولأنها تسعى إلينا بلا روح أو بروح مفتعلة غير طبيعية. وقد قالوا ليس المستأجرة كالثكلى.

ومما يدعو المجتمع الى الأسف أن الأغاني التي يسمعها الجمهور ويصغي إليها كلها مأجورة. وما ذلك إلا لأن الحرية الشخصية في جميع المجتمعات لم تزل محجورة. فالموسيقى الحرة أو الغناء الحر المندفع من العاطفة النفسية المبتعد عن الماديات لا يكاد يظهر للجمهور. وما وجوده إلّا من قبيل وجود الخبايا في الزوايا.

فمن أتيح له أن يسمع تحت أستار الظلام في احدى غرف الحب والغرام غناء من فم مغرم أو مغرمة مندفعاً عن قلب مثقل بالغرام، حاملا في نغماته روح مغنيه، خالياً من كل صنعة وكلفة، فقد سمع مناجاة الأرواح وعلم كيف تكون تلك المناجات في غناء لا إرتباط له بالماديات.

الموسيقى الآلية والصوتية

هنـاك موسيقى آليـة وموسيقى صوتية. فالآلية هي ما نسمعه من الفنانين بضربهم على المعازف كالعود والطنبور والقانون والكمان وغيرها، أو بنفخهم في الأنابيب كالبوق والمزمار والناي والسرناي وغيرها.

والصوتية هي ما نسمعه من أفواه المغنين من الأصوات في أغانيهم التي يتغنون بألحانها وأنغامها. والموسيقيان الآلية والصوتية مَتلازمتان كل واحـدة منهمـا متممـة للأخـرى بحيث لا يتم كمـال الغنـاء إلا باجتمـاعهما، ومتى انفردت احداهما عن الأخرى كانت ناقصة. وإذا اقتـرن بهما الرقص الذي هو أدنى غاياتهما فقد بلغتا منتهى الكمال الفني الذي تظهر فيه النفس الإنسانية بأبهى وأسنى مظاهر الشعور السـامي في الحياة الروحية. ومن هذه الناحية يصح إعتبارهما ميزاناً يوزن به ما للأمم من الشعور الراقي والذوق السليم في الحياة الروحية.

وقد قيل لي ما تقول في المغني الشهير محمد عبد الوهاب فقلت فنان ولكن كل غناء خرج من بين السبالين فبارد. وقيل فما تقول في أم كلثوم فقلت: أم كلثوم في فنون الأغاني امة وحدها بهذا الزمان

وقيل ما تقول في الموسيقى العربية في عصرنا هذا، فقلت إن الموسيقى الآلية في مصر أرقى من الموسيقى الصوتية رغم وجود أم كلثوم في مصر. ثم تأتي بعدها في المرتبة الثانية الموسيقى الآلية في سورية فهي أيضاً أرقى من المـوسيقى الصـوتية هناك، ثم تأتي بعدها في المرتبة الثالثة الموسيقى الآلية في العراق فهي أيضاً أرقى من الموسيقى الصوتية.

فالموسيقى الصوتية في جميع الأقطار العربية متأخرة في عصرنا هذا عن المـوسيقى الآليـة. أما هذه الأغاني التي نسمعها اليوم في العراق فحـديثها تافه بقدر ما قديمها رائع. وأحسن ما سمعته من الموسيقى الصوتية (بعد استثناء أم كلثوم طبعاً) الأغاني التونسية التي سمعتها من المحطة القومية في تونس. فانها بلهجتها المطبوعة العربية الخالصة تمثل روحاً عربية ناصعة وهي مع ذلك جد رائعة. وهكذا يجب أن تمثل الموسيقى لسامعها روح أمتها بكل معانيها المعلومة.

الموت والحياة

هما وليدان شقيقان لأب واحد وأم واحدة.

أما الحياة فنعمة من الله سابغة. وهي أُمُّ العجائب كلها. وأعجب ما فيها أن صاحبها يتحمل لأجلها من المشاق ما يطاق وما لا يطاق. وانها محجـوبـة وهي مكشوفة ومحبوبة وهي غير معروفة. إذا وزنت آلامها بلذاتها رجحت الأولى وخفت الثانية غير أن صاحبها يفتدي أقل لذة منها باحتمال ألف من آلامها.

وأما الموت فهو رحمة من الله واسعة. من شأنه أنه يبتذل المصون ولا تنفع فيه الرقى ولا الرَقون. ومن غريب أمره أنه يستمر وهو غير مذوق ويهاب وهو غير مرموق. وكل ما فيه إخماد آلام وأخذ الناس بالأوهام، فهو أبو الخرافات البشرية كلها.

وأصح ما يقال في هذين الشقيقين أنهما توأمان ولدا في آن واحد من بطن واحدة. وهما متلازمان تلازماً كونياً بحيث يؤدي أحدهما الى الآخر. فلذا كان من عجيب أمرهما أن من حرص على الحياة عاجله الموت، ومن حرص على المـوت وهبتْ له الحيـاة . فسبحان مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي.

في معرض اللغة أدعاية أم دعاوة

كثر استعمال كلمة «دعاية» في أيامنا فتداولتها الألسن والأقلام. وهي تستعمل في كلامهم بمعنى بث الدعوة ونشرها بين الناس بقصد استمالتهم الى أمر من الأمور أو تنفيرهم منه. غير أن بعض المتنطسين في اللغة من الكتاب أنكر هذه الكلمة وأخذ يستعمل مكانها «دعاوة».

وأظن أن الذي حملهم على إنكارها أمران. أحدهما عدم سماعها فلذا لم تذكر في معاجم اللغة. والثاني مخالفتها للقياس لأنها من دعا يدعو الواوي فاستعمالها بالياء مخالف للقياس. ولذا صاروا يستعملون بدلها (دعاوة) بفتح الدال أو بكسرها.

اما أنا فأرى استعمال دعاية هو الصواب لا دعاوة. أولاً لأن الدعاوة اسم من الادعاء كالدعوى. فمعناها غير المعنى المراد بالدعاية. ذلك لأن المراد بها كما قلنا آنفاً هو نشر الدعوة في أمر من الأمور لاستمالة الناس اليه أو تنفيرهم منه. ومعنى الادعاء لا يناسب هذا.

ثانياً ان كلمة دعاية وردت في الكتاب النبوي الذي أرسل الى قيصر. إذ جاء فيه «... أمّا بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام» ولا ريب أن رسول الله أفصح من نطق بالضاد. فدعوى عدم السماع فيها غير صحيحة.

فان قلت لماذا أغفلها علماء اللغة فلم يذكروها في معاجمهم قلت أولاً أن هذه المعاجم التي بين أيدينا لم تثبت جميع مفردات اللغة بل فاتها منها شيء كثير. ثانياً يجوز أنهم أغفلوها لأنهم لم يسمعوها فيما بلغهم من كلام العرب الذي نقلته اليهم الرواة. ولكن عدم السماع لا يستلزم عدم الوقوع إذ يجوز أن العرب قد فاهت بكلمة فات الرواة سماعها ففاتهم نقلها وذكرها. كما وقع في كلمة دعاية فان الرسول قد استعملها في كتابه الى قيصر وقد فاتهم سماعها فلذا لم تذكر في معاجم اللغة.

واما مخالفتها للقياس فان في اللغة شواذ كثيرة وهذه منها. ولا يعترض علينا بأن الشاذ غير فصيح، لأن فصاحة الكلمة إنما تثبت باستعمال الفصحاء إياها وقد استعمل كلمة (دعاية) سيد الفصحاء.

أيضاً

كان ولي الدين يكن أحد مشاهير الكتاب في مصر يكره كلمة (أيضاً) أشد الكراهية ويؤاخذ بها الذين يستعملونها في كلامهم من الكتاب وينتقد عليهم استعمالها. وكنت أنا أظن أن استعمالها في الكلام ليس من الفصيح وإنما هو مولد محدث. غير اني كنت أرى الضرورة قاضية باستعمالها لمسيس الحاجة إليها في الكلام. لأنها تفيد معنى (دخى) في اللغة التركية ومعنى (كمان) في العامية السورية ومعنى (هم) في العامية العراقية وليس في العربية الفصحى ما يفيد هذا المعنى سواها. فلا بد من استعمالها وان لم تكن من الفصيح حتى وقفت على ورودها في الحديث النبوي. ففي الجزء (٣) والصفحة (٢١) من السيرة الحلبية جاء استعمال كلمة (أيضاً) في كلامه (صلعم). وذلك أن سلمة بن الأكوع بايع يوم الحديبية ثلاث مرات. أول الناس ووسطهم وآخر الناس. وكان ذلك بأمر النبي له في الثانية والثالثة. بعد قول سلمة له قد بايعت يا رسول الله فقال له رسول الله وأيضاً. لعلم رسول الله بشجاعته وشهرته في الثبات. فبهذا علمت انها من الفصيح القديم لا من المولد المحدث.

ايضا

كان ولي الدين يكن احد مشاهير الكتاب في مصر يكره كلمة
(ايضا) اشد الكراهية ويؤاخذ بها الذين يستعملونها في كلامهم
من الكتاب وينتقد عليهم استعمالها . وكنت انا اظن ان
استعمالها في الكلام ليس من الفصيح وانما هو مولد محدث .
غير اني كنت ارى الضرورة قاضية باستعمالها لمسيس الحاجة اليها
في الكلام . لانها تفيد معنى (دخى) في اللغة التركية ومعنى
(كمان) في العامية السورية ومعنى (هم) في العامية العراقية
وليس في العربية الفصحى ما يفيد هذا المعنى سواها . فلابد من

كتاب القبض

جاء في الجزء (١٢) والصفحة (١١١) من الأغاني ما نصه:

«... وكتبت اقتضيه فبعث إليّ أن أكتب لي قبضاً بها وخذها بعد جمعة. فكرهت أن أكتب قبضاً بها فلا يحصل لي شيء. فاستترت وهو في منزل صديق لي. فلما بلغه استتاري خاف أن أشكوه الى الواثق فبعث إلي بالمال وأخذ كتابي بالقبض...».

ان المتكلم في هذه العبارة هو صالح بن عبد الوهاب صاحب الجارية قلم المنسوبة إليه المشهورة بقلم الصالحية. والضمير في «اقتضيه» لابن الزيات وزير الواثق. والضمير في قوله «قبضاً بها» عائد الى الخمسة آلاف دينار التي اشترى الوزير بها الجارية منه وقد مر ذكرها في العبارة.

فمن هذا نفهم ان الصواب فيما يستعمله الناس والكتاب في زماننا من قولهم (كتب وصلا بكذا) مثلا هو أن يقال كتب قبضاً بكذا وان يقال لهذا الكتاب كتاب القبض لا كتاب الوصل كما يقولون.

كتاب القبض

جاء في الجزء (١٢) والصفحة (١١١) من الاغاني ما نصه :

« ... وكتبت اقتضيه فبعث إليّ ان اكتب لي قبضاً بها وخذها بعد جمعة. فكرهت ان اكتب قبضاً بها فلا يحصل لي شيء. فاستترت وهو في منزل صديق لي. فلما بلغه استتاري خاف ان اشكوه الى الواثق فبعث إلي بالمال وأخذ كتابي بالقبض ... ».

ان المتكلم في هذه العبارة هو صالح بن عبد الوهاب صاحب الجارية قلم المنسوبة اليه المشهورة بقلم الصالحية. والضمير في « اقتضيه » لابن الزيات وزير الواثق. والضمير في قوله « قبضاً بها » عائد الى الخمسة آلاف دينار التي اشترى الوزير بها الجارية منه وقد مر ذكرها في العبارة.

الأذان عند المسلمين

كان المسلمون قبل الهجرة يصلّون في مكة بلا أذان. لأنهم كانوا مستضعفين غير أحرار في عبادتهم. فلما هاجروا الى المدينة وبنى رسول الله مسجده فيها وصاروا يجتمعون فيه للصلاة مع رسول الله جماعة مست الحاجة الى إعلامهم بحينونة وقت الصلاة ليحضروا لأدائها.

فاستشار رسول الله أصحابه في هذا الأمر فأشاروا بأمور ما إرتضاها. وكادوا في النهاية أن يتخذوا الناقوس واسطة للاعلام كما تفعل النصارى. وبينما هم على هذا إذ رأى عبد الله بن زيد الأنصاري في منامه رجلاً لقنه صيغة الأذان المعلومة. فأتى رسول الله وقص عليه ما رأى. فقال رسول الله انها لرؤيا حق ان شاء الله. ثم قال لعبد الله قم مع بلال فألق عليه ما رأيت وليؤذن به فانه اندى (وفي رواية) أمد منك صوتاً.

أما صيغة الأذان التي رآها عبد الله فهي سبع كلمات كل واحدة منها جملة مستقلة. وهذه هي (١) الله أكبر (٢) أشهد أن لا إله إلا الله (٣) أشهد أن محمداً رسول الله (٤) حيى على الصلاة (٥) حيى على الفلاح (٦) الله أكبر (٧) لا إله إلا الله.

أما كيفية أداء هذه الكلمات أو هذه الجمل السبع فإنها (على ما رآه عبد الله في المنام أيضاً) تكرار كل واحدة منها مرتين إلا الأخيرة (لا إله إلا الله) فإنها تقال مرة واحدة. هذا بالنظر الى ما عليه أهل المدينة. وأما بالنظر الى ما عليه غيرهم فتكرر الأولى (الله أكبر) أربع مرات. وما بعدها مرتين. إلا الأخيرة فإنها تقال مرة واحدة فقط.

ثم ان بلالا زاد في أذان الفجر بعد الحيصلتين (الصلاة خير من النوم) يقولها مرتين. فأقرَّ النبي هذه الزيادة لما فيها من تنشيط الكسلان وحث النائم على ترك النوم لأجل الصلاة. فهذا هو الأذان الذي أثبته حديث عبد الله بن زيد بإجماع الأمة لا يعرف بينهم خلاف. واستمر العمل به عند المسلمين في حياة رسول الله وبعد وفاته.

ما زيد في الأذان

ولكن جاءت بعد ذلك الشيعة فزادوا فيه بعد الحيصلتين (حيى على خير العمل) مدعين أن علي بن الحسين كان يقول ذلك في أذانه. وما أدري أي حاجة الى هذا بعد حيى على الفلاح. فان خير العمل والفلاح شيء واحد. على أن الفلاح يناسب المقام أكثر من خير العمل. لأن معناه الفوز والنجاة. وخير العمل إنما هو وسيلة من وسائل الفوز والنجاة. فخير العمل هو الصلاة نفسها التي يدعو اليها المؤذن. والفلاح غايتها ولا ريب أن ذكر الغاية في مقام الدعوة الى الصلاة أبلغ من ذكر الواسطة. ثم ان الفلاح مع كونه كلمة واحدة أوسع معنى من خير العمل المؤلف من كلمتين ففيه إيجاز أيضاً. والمقام في الأذان مقام إيجاز. فأية حاجة الى قول المؤذن حيى على خير العمل بعد قوله حيى على الفلاح. انني أشك كل الشك في أن علي بن الحسين كان يقول ذلك في أذانه كما تدعيه الشيعة. وهل هم يعتبرون علي بن الحسين مشرّعاً في الاسلام. واذا قيل أن بلالا قد زاد فيه الصلاة خير من النوم قلنا أن ذلك كان في حياة النبي وقد أقر النبي هذه الزيادة فالذي شرعها هو النبي لا بلال.

وقد رأيت في السيرة الحلبية ما يدل على أن لأبناء فارس يداً في هذه الزيادة. قال ان الشيعة كانت في دولة بني بويه تقول بعد الحيصلتين حيى على خير العمل. قال فلما كانت دولة السلجوقية منعوا المؤذنين من ذلك. وكان ذلك في منتصف القرن الخامس للهجرة. فالظاهر أن المقصود من هذه الزيادة هو مجرد إيقاع المخالفة بين المسلمين لا غير. وقد مر أن بني بويه هم الذين كانوا أول من أمَرَ بإقامة المناحات على الحسين أيام المحرم.

التلحين في الأذان

أنكر الفقهاء قاطبة التلحين في الأذان، فقال بعضهم بتحريمه والأكثرون بكراهته. قالوا يكره في الأذان التلحين والتطريب وتفخيم الكلام والتشادق والتمطيط. قالوا ويجب الاحتراز فيه من مد ألف الله والصلاة والفلاح كما يجب الاحتراز من عدم النطق بهاء الصلاة لأن

المعنى عند عدم النطق بها يتحول الى الدعاء الى النار فإن الصلا هو الاحتراق بالنار.

وأكثر المؤذنين عندنا ان لم نقل كلهم لا ينطقون بهاء الصلاة عند الوقف عليها كما أن أكثرهم أو كلهم يقولون (الله وكبر) بتسكين هاء الجلالة وجعل ضمتها واواً وحذف همزة أكبر. أما مد ألف الله والصلاة والفلاح مداً فاحشاً فمألوف لجميع المؤذنين عندنا. وهو شيء شدد الفقهاء في اجتنابه والاحتراز منه لأنه خطأ وخروج بلهجة الكلام العربي عن نهجها السوي.

أما التلحين والتطريب في الأذان فليس المؤذنون كلهم سواء فيه، بل فيهم من لا يعرفه، وفيهم من يفتن فيه افتنانا ويبالغ كل المبالغة حتى تكاد لا تدري أمغنياً تسمع أم مؤذناً. ولا ريب ان التطريب في الأذان ان كان مكروهاً في نظر الفقهاء فهو مشوه للأذان في نظر الحقيقة. لأنه يخرج به عن غايته التعبدية المقدسة التي هي اعلام المصلين بحلول وقت الصلاة. والتطريب خارج عن هذه الغاية لا يلائمها ولا يماشيها.

البدعة الشايعة في الأذان اليوم

استمر المسلمون يؤذنون الأذان الثابت بحديث عبد الله بن زيد من غير زيادة ولا نقصان مدة ثمانية قرون. حتى قام بمصر في أواخر القرن الثامن رجل اسمه نجم الدين الطنبذي المحتسب فأمر المؤذنين بالصلاة والتسليم على النبي عقب الأذان يرفعون بذلك أصواتهم كالأذان. فصارت الصلاة على النبي جزءاً من الأذان وتتمة له. وكان ذلك في شعبان سنة احدى وتسعين وسبعمائة هجرية. كما ذكره الإمام السيوطي في تاريخ الخلفاء. وقال هذا أول ما حدث وكان الآمر به المحتسب نجم الدين الطنبذي. والمحتسب في ذلك العهد هو بمنزلة رئيس البلدية عندنا اليوم.

وأظن أن الذي حمل هذا المحتسب على ابتداعه هذه البدعة هو جهله بحقيقة ما ورد في بعض الأحاديث النبوية من الأمر بالصلاة على النبي بعد الأذان. ولذا قال الفقهاء تسن الصلاة على النبي بعد الأذان للسامعين وللمؤذن أيضاً. ولا ريب أن الصلاة على النبي عقب الأذان

مسنونة، ولكن على أن يكون ذلك من السامع أو من المؤذن بصوت خافض لا يسمعه الّا هو. لا أن يرفع بالصلاة صوته كالأذان فيجعلها جزءاً منه فان ذلك غير مسنون بل هو بدعة وزيادة في الأذان ولو كان مسنوناً لما تركه المسلمون ثمانية قرون.

ان جهل هذا المحتسب بكيفية الصلاة المسنونة بعد الأذان هو الذي حمله على ابتداع هذه الزيادة في الأذان وإلّا فكما يصلي السامعون على النبي بعد الأذان كذلك يصلي المؤذن أيضاً من دون أن يرفع بها صوته فيجعلها جزءاً من الأذان. فقاتل الله الجهل ما أفسده لدنيا الناس ودينهم.

لا شك أن الصلاة على النبي بعد الأذان بهذه الصورة التي ابتدعها هذا المحتسب المصري بدعة في الديانة الاسلامية وكل بدعة ضلالة كما جاء في الحديث النبوي المشهور، الا أن المتفيهقين من الفقهاء عفا الله عنهم توسَّعوا وتساهلوا فجعلوا من البدع ما هو بدعة سيئة ومنها ما هو بدعة حسنة ، فخالفوا قول رسول الله «كل بدعة ضلالة». ولذلك كثرت البدع في الاسلام وتفرقت الطرق بالمسلمين وضاع جوهر الاسلام وفقد روحه فاستمسك المسلمون منه بالقشور أكثر من اللباب.

قلنا قبلا ونقول الآن أن الاسلام هو دين الوحدة كما أنه دين التوحيد. فمن الكفر في حكمه كل ما أخل بتوحيد الله ومن الكفر أيضاً كل ما أخل بوحدة المسلمين. وهل يستريب خبير ذو فكر ونظر في أن هذه البدع الناشئة في المسلمين من اختلاف مذاهبهم هي التي مزقت وحدتهم حتى أصبحوا متفرقين متناكرين وأصبح معظمهم تحت سلطان الأجنبي يسومهم الخسف ويأخذهم بالعنف.

الأذان في الراديو

وبعد هذا كله جاء مدير الدعاية في بغداد فزاد الطينة بلة إذ صار يذيع الأذان بالراديو الذي لا تعرفه عامة الناس إلا أداة لإذاعة الأغاني والأخبار. فجعله هو آلة تستعمل في العبادات. وقد سبقت مصر العراق ببدعة اذاعة القرآن بالراديو فتبعها العراق وغيره في ذلك من دون تأمل

أو تفكير.

على أن اذاعة الأذان بالراديو أقل غرابة من اذاعة القرآن لأن الأذان إعلام بوقت العبادة فاذاعته على المسلمين بالراديو له وجه وان أغنت عنه كثرة المؤذنين وقلة المصلين في هذا الزمان.

ولو أنهم أذاعوه كأمر ديني خالياً من التكلف والتصنع لاحتملناه وان كانت صبغته الدينية تنافي ما للراديو من صبغة لهوية. ولكنهم يذيعونه على وجه من التلحين والتطريب بحيث يكاد سامعه لا يدري أمؤذناً يسمع أم مغنياً. فترى المؤذن لأجل أداء تلاحينه يمط بالكلمات مطاً بعيداً ويمد الحروف مداً خارجاً عن حده المألوف ويرجع بنغماته ترجيعاً مطرباً حتى يخرج بالأذان عن صبغته الدينية وعن غايته التعبدية التي هي عبارة عن اعلام المسلمين بحلول وقت الصلاة. وما أدري أسيأتي زمان يؤذن فيه المؤذنون على (النوط) الموسيقي الذي يضعه أساتذة فن التلحين في الموسيقى.

ان أهل الغرب في هذا الزمان أعرف منا بالموسيقى اذ تقدموا فيها علينا كما تقدموا في كل شيء. وهم مع ذلك لا يضربون نواقيسهم بتلاحين مطربة اذا ضربوها في كنائسهم. لأن الموسيقى شيء والعبادة شيء آخر. فلا تخلط هذي بتلك. وليس من الحكمة خلط الملاهي بالعبادات. فان بينهما بوناً بعيداً جداً. لأن العبادة ليست إلا تلبساً بالخضوع والخشوع أمام المعبود. والملاهي لا تكون إلّا لأجل الاندفاع بتهيج العواطف النفسانية الى الطرب والسرور. فبينهما من البعد ما بين الطيش والرزانة أو ما بين الخفة والوقار.

فان قيل أن أهل الغرب يصلون على عزف البيان في كنائسهم قلنا ان أهل الغرب لا يجوز لنا أن نتخذهم قدوة في أمور الدين بل يجب أن نخالفهم في ذلك. ألا ترى أن رسول الله لما استشار أصحابه في الأذان ذكروا له بوق يهود فأباه وقال ذلك من أمر اليهود وذكروا له الناقوس فقال ذلك من أمر النصارى. على أن أهل الغرب قد تفننوا في الموسيقى حتى أوجدوا منها فناً محزناً يستعملونه في المآتم والأحزان ومن هذا القبيل ضربهم بمعزف البيان في صلواتهم. فالموسيقى التي يستعملونها في

كنائسهم خارجة عن حدود الملاهي.

ولو أن المسلمين عند سماعهم هذا المؤذن المطرب هرعوا الى مساجدهم لأداء الصلاة لهان الخطب. ولكنك ترى النوادي والمقاهي والمجتمعات العامة غاصة بالناس من المسلمين والمؤذن المطرب يرجع تطريبه بالراديو وهو لا يتم أذانه في أقل من ربع ساعة وعندما يفرغ من تطريبه لا ترى من يقوم ذاهباً لأداء الصلاة فكأن الغاية المقصودة من اذاعة الأذان بالراديو انما هي هذا التطريب الذي صار به الأذان أغنية من الأغاني.

الاذان عند المسلمين

كان المسلمون قبل الهجرة يصلّون في مكة بلا اذان. لانهم كانوا مستضعفين غير احرار في عبادتهم. فلما هاجروا الى المدينة وبنى رسول الله مسجده فيها وصاروا يجتمعون فيه للصلاة مع رسول الله جماعة مست الحاجة الى اعلامهم بحينونة وقت الصلاة ليحضروا لادائها.

فاستشار رسول الله اصحابه فى هذا الامر فاشاروا بامور ما ارتضاها. وكادوا في النهاية ان يتخذوا الناقوس واسطة للاعلام كما تفعل النصارى. وبينما هم على هذا اذ رأى عبد الله بن زيد الانصارى في منامه رجلا لقنه صيغة الاذان المعلومة. فأتى رسول الله وقص عليه ما رأى. فقال رسول الله انها لرؤيا حق ان شاء الله. ثم قال لعبد الله قم مع بلال فألق عليه ما رأيت وليؤذن به فانه اندى (وفي رواية) امد منك صوتا.

اما صيغة الاذان التي رآها عبد الله فهي سبع كلمات كل واحدة منها جملة مستقلة. وهذه هي (١) الله اكبر (٢) اشهد ان لا آله الا الله (٣) اشهد أن محمداً رسول الله (٤) حي على الصلاة

القرآن في الراديو

أما إذاعة القرآن بالراديو فالمصيبة فيها أعظم اذ من المعلوم ان القرآن كتاب مقدس وان قراءته عبادة في شرع الاسلام وانه يجب على المسلم أن يستمع له وينصت عند قراءته. ولذلك لا تجوز قراءته إلا في أماكن مقدسة كالمساجد، أو في أماكن خاصة كالبيوت ونحوها من الاماكن البعيدة من الضوضاء الخالية من الغوغاء النزيهة من اللغط والهذر. أما في المقاهي والمجتمعات العامة فتلاوته جديرة بأن تعد من عجائب المسلمين في هذا الزمان الذي أصبح السواد الأعظم منهم أقل به علماً وأبعد عنه فهما.

انظر الى هذه المقاهي في بغداد تجدها مملوءة بالناس من جميع أهل الملل والأديان وتسمع فيها لغطاً يصم الآذان. لأن الناس خاصة في العراق لم يتعودوا الهمس والتناجي في كلامهم بل هم يصخبون اذا تحدثوا. فلذا تسمع في هذه المقاهي لغطاً تتخلله أصوات فرقعة المهارك التي تضرب بها أكف اللاعبين بالنرد. ففي هذا اللغط وفي هذه الضوضاء تسمع أيضاً قراءة القرآن بالراديو، يصل صوت قارئه الى أذنيك من بين هذا الضجيج ضئيلا غير واضح بحيث يصعب عليك تمييز كلماته وحروفه كل التمييز خصوصاً إذا كنت جالساً بعيداً عن آلة الراديو. اذ ليس في الجالسين منصت ولا مستمع. وليس الجالسون كلهم بمسلمين بل فيهم اليهودي والمسيحي والصابئي. والمسلمون منهم ليسوا كلهم على حد سواء من أحوالهم الشخصية بل فيهم الصالح والطالح وفيهم المتقي والفاسق. وفيهم المؤمن والزنديق وفيهم الصاحي والسكران. وكلهم أجمعون حتى متقيهم ومؤمنهم مشغولون عن سماع القرآن بالكلام أو بغيره. ولو أنهم استمعوا له لما فهموه. فهل تجوز إذاعة القرآن بالراديو على مثل هذه الاخلاط من الناس وفي مثل هذا اللغط والضجيج. وهل هذا ابتذال لتلاوة القرآن أم صيانة واحترام.

لا جرم أن في إذاعة القرآن بالراديو ابتذالاً له وامتهاناً لتلاوته أولاً لأنه يذاع على من يؤمن به ومن لا يؤمن به، وعلى من يفهمه ومن لا يفهمه،

وعلى من يحترمه ومن لا يحترمه، وفي أماكن تصونه وأماكن لا تصونه.
ثانياً لأن آلة الراديو تذيع أموراً لا تناسب القرآن ولا تماشيه. فهل من المستحسن في عرف المسلمين أن تذيع علينا القرآن ثم بعد فراغها منه تعقبه باذاعة صوت من أصوات المغنيات فنكون قد سمعنا القرآن والمغنية في مجلس واحد من آلة واحدة ونكون أيضاً قد جمعنا بين العبادة والدعارة في مجلس واحد ضم اخلاطاً من الناس فيهم المتقي والفاجر وفيهم المؤمن والكافر. ثم أن آلة الراديو موجودة حتى في المواخير، وقد تفتح هناك عند إذاعة القرآن كا شاهدته أنا بعيني وسمعته بأذني. ومن الغريب اني في ذلك المجلس تذكرت قول ابي العلاء المعري

مساجدكم ومواخيركم   سواء فبعداً لكم من بشر

ثم ان القرآن لا يتلى لمجرد الاستماع له والانصات وإنما يتلى لتفهمه وتدبره والتفكر فيه وإلا لم تكن تلاوته عبادة يتقرب بها المسلم الى الله. فما الداعي إذن الى اذاعته بالراديو على غوغاء الناس وعامتهم في المقاهي والمجتمعات العامة. أولئك الذين لا ينصتون عند قراءته ولا يستمعون فضلا عن كونهم لا يفهمونه ولا يفتكرون فيه.

قد يرميني بعض الجاهلين بالزندقة ويحملون كلامي هنا على غير محمله. أما أنا فأقول لعنة الله على كل زنديق مرة واحدة ولعنة الله على الجاهلين ألف مرة. وما أنا (والله شاهد عليم) الا مسلم ولكن لا كهؤلاء المسلمين. إنما أنا مسلم فحسب لا شيعي ولا سني، ولا حنفي ولا شافعي ولا غير ذلك. ثم اني في فهم دين الاسلام لا اتقيد من الاسلام الا بمبدئه الرفيع العام. فلا أكون تابعاً لغيري في فهم نصوصه بل اجتهد في فهمها بقدر ما آتاني الله من فهم وعقل. فاذا رأيت فيه ما لا يناله العقل حاولت تأويله فان عجزت وقفت عنده متحيراً ليس إلا. وهذا كل ما استطيعه ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ثم أني احترم القرآن لا لكونه كتاباً مقدساً فقط بل لأن فيه ما يجب احترامه على كل من كان حر الفكر حر الضمير. فلو لم أكن مسلماً لاحترمته أيضاً بلا محاباة ولا مداجاة.
فهذا هو الذي دعاني أن أقول ما قلته في إذاعة القرآن بالراديو. وبعد هذا فليقل الجاهلون ما شاءوا. وقد قلت قبلا:

لعمرك ان الحر لا يتقيد   الا فليقل ما شاء في المفند

ومن الغريب أن دول الاستعمار الغربية التي هي اليوم منيخة بكلكلها الاستعماري على معظم بلاد الاسلام قد أخذت في سبيل دعاياتها الاستعمارية تذيع القرآن بالراديو على بلاد الاسلام تمويهاً على المسلمين بأنها من محبي الاسلام وناصريه. حتى ان بعض ساستها لم يخجل من تصريحه بأنه حامي الاسلام. وما هو في الحقيقة ولا غيره من ساسة الغرب الا اعداء الاسلام والمسلمين لا يريدون الا استعمار بلادهم وتثبيت سلطانهم عليهم. أما المسلمون فانهم لفرط غفلتهم وجهلهم يفرحون إذا سمعوا القرآن يذاع عليهم بالراديو من عواصم الدول الغربية. كأن القرآن ما انزله الله إلا ليذاع بالراديو فقط لا ليؤمنوا به أو ليحترموه ويحترموا أهله على الأقل. وتالله لو كان المسلمون اليوم على الاسلام الصحيح لاحتجّوا على دول الغرب من أجل إذاعتهم بالراديو كتابهم المقدس كما تذاع الأغاني.

وقد انفرد المسلمون من بين أهل الأديان باذاعة كتابهم المقدس في الراديو على عامة الناس. فلا يفعل ذلك غيرهم من النصارى واليهود وغيرهم. مع ان عوام هؤلاء متمسكون بدينهم أكثر من عوام المسلمين. كما أنهم يفهمون كتابهم المقدس إذا تلي عليهم أكثر منهم. فلو انهم بدل اذاعة القرآن شرحوا لهم احكامه وفسروا لهم آياته تفسيراً يفهمونه لأفادوا واستفادوا.

ان هذه البدعة ابتدعتها مصر في هذا القرن كما ابتدعت زيادة الصلاة على النبي بعد الأذان في القرن الثامن. فتبعها في هذه البدعة العراق وغيره حتى بلاد الغرب التي لا تؤمن بالقرآن. فعلى من ابتدعها وزرها ووزر من عمل بها من أهل الشرق والغرب. أما نحن فنبتهل الى الله تعالى قائلين اللهم لا تجعلنا من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

مقتل الحسين والفتن الاسلامية

ابتلي المسلمون بعد وفاة محمد رسول الله بفتن كثيرة لم تزل متتالية الى يومنا هذا. وقد ذابت في حميمها وحدتهم الاسلامية التي ذاق محمد بن عبد الله الأمرين في إيجادها من العدم بآياته المنزلة طوراً وبسيفه المنتضى تارة ساعيـاً، داعياً، جاهداً صابراً، مدارياً محارباً مدة ثلاث وعشرين سنة.

أول تلك الفتن فتنـة الردة التي ارتـد بهـا بعض قبائل العرب عن الاسلام. وتليها فتنة قتل الخليفة عثمان. ثم فتنة يوم الجمل. ثم فتنة يوم صفين. ثم فتنة يوم كربلاء ومقتل الحسين. ولم تزل الفتن متسلسلة الى يومنا هذا.

أما فتنة الردة فيجب ان نقطعها من السلسلة ونلقيها في حفرة يبلغ قعرها مركز الأرض حيث يصهرها ما هنالك من حرارة جهنمية تجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكورا. ذلك لأنها سكنت ريحها وخفت جرسها وهمد أوارها وهي في مكانها قبل أن تخرج منه الى غيره. وما ذلك إلا بفضل ما قيضه الله لها من عزم الخليفة الأول أبي بكر، وسيف القائد الأكبر خالد بن الوليد.

ففتنة الردة لم تضر الاسلام شيئاً بل بقي بعدها علمه الخفاق عالياً مرفوعاً على الأعناق يسير كالشمس من شرق الى غرب. وإن كان فيها ما يدعو الى الأسى والأسف فهو ما سقط فيها من قتلى العرب الذين كانوا إذ ذاك مادة الاسلام. فلذا يصح أن نعتبرها كأنها لم تكن، وان نعتبر أول الفتن قتل عثمان.

الفتنة التي لا تنام

ان جميع هذه الفتن الاسلامية قد نسيت أو تنوسيت بمرور الأيام حتى اندملت جروحها أو كادت إلا فتنة واحدة وهي الفتنة التي نامت ثلاثة قرون ونصف قرن حتى جاءها (مذل الدولة) العباسية ابن بويه الفارسي فأيقظها وجدد أخلاقها ورقع خروقها ورتق فتوقها بكل ما عنده

من لؤم وخبث فاستيقظت وهي ثكلى تنوح بصوتها الحزين من جهة وتدعو الى الثار والانتقام من جهة أخرى. ولم تزل كذلك الى يومنا هذا. والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

قد علمت أيها القارىء الكريم ان الفتنة التي لا تنام هي فتنة يوم كربلاء. ولقد مر على المسلمين ثلاثة قرون ونصف قرن وهم لا يذكرون شيئاً من هذه الفتنة إلا في كتبهم التاريخية فيتكلم عنها المؤرخ منهم ذاكراً أخبارها مصوراً صورتها كما يوحيه إليه رأيه فيها واعتقاده بأهلها ليس إلا. حتى جاء الطغامة الفارسي معز الدولة بن بويه الذي كان يلعب بالمطيع لله العباسي كما تلعب القطة بالفارة فجددها وبقي ينكأ قرحتها في كل عام مرة حتى تدمى. وهـو لم يرد بذلك الا تشتيت شمـل العـرب المسلمين بتفريق كلمتهم وتمزيق وحدتهم الاسلامية.

قال الامـام السيوطي في تاريخ الخلفاء: «وفي سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة في خلافة المطيع لله الخليفة العباسي ببغداد الزم معز الدولة ابن بويـه في يوم عاشوراء الناس بأن تغلق الأسواق ويمنع الطباخون من الطبخ. ونصبوا القباب في الأسواق وعلقوا عليها المسوح وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن مآتم على الحسين. وهذا أول يوم نيح فيه على الحسين ببغداد واستمرت هذه البدعة سنين».

ان هذه البدعة المنكرة لم تزل باقية مستمرة في العراق على وجه أوسع وأشنع من هذا الذي ابتدعه ابن بويه. فإن الشيعة هنا يقيمون المناحات من أول المحرم الى اليوم العاشر منه وإن كانت النساء في بدعة ابن بويه يخـرجن منتشرات الشعور ويلطمن في الشوارع، فان الرجال أيضاً في عهـدنا يخرجون في الشوارع حاسري الصدور يلتدمون على صدورهم ويضربون بسلاسل من حديد على ظهورهم وينقفون بالسيوف جباههم حتى تسيل منها الدماء.

فلو رأيت صدور القوم حاسرة ... وكلهم قام بالكفين ملتدما
لقلت قول بريء من جهالتهم ... هذا لعمري بكاء أضحك الأمما

ولم يكتفوا بذلك بل هم يمثلون وقعة كربلاء تمثيلا همجياً فيمثلون الحسـين ومن معـه ويمثلون قاتليهم. ويحـرقون خيامهم حتى تنتهي

الواقعة بقتل الحسين. وهكذا يجددون هذه الفتنة في كل عام ليفتتن بها المسلمون فيقع بينهم الخلاف والنزاع ويقع التشاحن والتباغض باختلاف المذاهب والآراء. وقد أحسن الشاعر العراقي عبد الغفار الأخرس إذ قال:

قتلوا الحسين بكل عام مرة ... وتمثلوا بعداوة وتصوروا
ويلاه من تلك الفضيحة أنها ... تطوى وفي أيدي الروافض تنشر

قاتل الحسين في وقعة كربلاء

من هو قاتل الحسين في كربلاء؟ هذا ما نريد أن نتكلم عنه هنا فنقول: قيل ان الذي تولى قتله شمر بن ذي الجوشن وقيل غيره والصحيح أنه اشترك في قتله عدة رجال لأنه لم يمت من ضربة واحدة بل خر صريعاً الى الأرض وفيه جراحات عديدة لكل واحدة منها أثر في موته.

أما أنا فأقول إذا رجعنا بالحادثات الى أسبابها الأصلية البعيدة هانت في نظرنا الأسباب القريبة المباشرة وجاز لنا أن نحكم في القضية التي نريد قول الفصل فيها حكماً يستند الى سببها الأصلي البعيد غير المباشر. وان كنا لا نترك الأسباب القريبة خارجة عن ذلك الحكم. وبالنظر الى هذا نقول ان الذي قتل الحسين في كربلاء هو الحر بن يزيد التميمي ان لم يكن منفرداً بقتله فهو أول القاتلين. واليك بيان ذلك:

لما سار الحسين ومَنْ معه الى العراق بث ابن زياد سراياه في طريقه من كل أوب. فمن ذلك أنه أرسل الحر بن يزيد التميمي هذا في ألف فارس. فالتقى بالحسين وجماعته قرب (شراف) من حدود العراق. فكلمهم الحسين وقال لهم نحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم. وقال فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم ورجعت الى حيث كنت.

فقال له الحر أنّا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر. فأتى الحسين بخرجين مملوءين صحفاً فنثرها بين أيدي الحر وأصحابه. فقال الحر إننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك وقد أمرنا أنا إذا لقيناك لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله.

أقول ان الحر لو اكتفى باعتذاره الثاني الذي قال فيه «إنّا قد أمرنا أن نقدمك الكوفة على عبيد الله» لقلنا بأنه رجل ساذج بسيط وأنه صافي النية وأنه يعترف بما للحسين من منزلة رفيعة ومكانة علية، ولكن طاعته للأمير إقتضت أن يمنع الحسين من الرجوع الى الحجاز وأن يقدمه الكوفة على أميره وهو لا يعلم بما لهذا الأمر من عاقبة سيئة. ولكنه لم يكتف بذلك بل هو في أول الأمر أنكر على الحسين الكتب والرسل إذ قال له «إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر» ولا ريب أن هذا القول منه يتضمن إنكار تلك الكتب واستنكارها أيضاً بدليل أن الحسين لما أخرج إليه الكتب قال له «إننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك». وهذا صريح في أنه كان من حزب أعداء الحسين، ان لم يكن من أعدائه الألداء فهو من أعدائه الأغبياء البتة.

وسواء كان عدواً أم غير عدو لا يكون من الغباء إلّا بحيث يعيى عن النظر في عواقب أمر خطير كأمر الحسين. ولذا نراه تجاه الحسين مصراً على تنفيذ أمر ابن زياد. فإن الحسين بعد هذا الحوار أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا نحو الحجاز فمنعهم الحر. فقال له الحسين ما الذي تريد؟ قال أريد أن أنطلق بك الى الأمير عبيد الله بن زياد، فقال الحسين إذن والله لا أتبعك. فقال الحر إذن والله لا أدعك.

فهذا الإصرار على المنع الجأ الحسين أن يسير نحو الكوفة مكرهاً والحر يسايره بجيشه. وقد أراد الحسين في أثناء المسير أن يميل عنه نحو البادية حتى أخذ بمن معه ذات اليسار فمنعه الحر أيضاً، ورده نحو الكوفة حتى جاء به الى كربلاء قريباً من الفرات. وهناك وقف الحر وأصحابه أمام الحسين ومن معه فمنعوهم من المسير فنزل الحسين بهذا المكان. ثم كان ما كان.

لا ريب أن هذا الرجل المسمى بالحر وما هو إلا عبد قن لو كان يملك نفساً حرة وعقلاً رزيناً وإيماناً صحيحاً ونظراً في عواقب الأمور بعيداً لكان في إمكانه أن يأخذ بأحد أمرين إما أن ينحاز بجيشه الذي يقوده الى الحسين على تقدير أن الجيش يطيعه، وإما أن يترك الحسين راجعاً الى الحجاز ويذهب هو أيضاً معه أو بعده على تقدير أن الجيش لا يطيعه

نابذاً هذه الأمرة التي أمره بها إبن زياد وراءه ظهرياً. ولكان بذلك قد حال دون وقوع هذه الفتنة التي ظل المسلمون يكابدون آلامها الممضة ونتائجها المخزية الى يومنا هذا.

ولكنه لم يفعل ذلك بل جاء بالحسين حتى وضعه في قبضة ابن زياد وبين سيوفه وحرابه. ثم رجع عن غيه حين لا تنفع الرجعة فقاتل مع الحسين حتى قتل. ولا شك ان الرجوع عن الغي من هذا الرجل الأفين الضعيف العقل والإيمان لم يكن الا كإيمان فرعون حين أدركه الغرق. فهو بهذا الرجوع الطائش لا يكفر عن جنايته الطامة. ولكن الشيعة قد جعلوا له قبراً يعبدونه كما يعبدون قبر الحسين. فسبحان من جعل الضلال هدى في نظر الضالين.

الاشتراكية في الاسلام

لو افتكر الانسان حراً لتجلت له الحقيقة بوجهها الأغر البهيج. أما إذا قيد فكره بأقوال الناس وتقاليدهم فلا يخرج في افتكاره من ظلمة إلّا الى أخرى. وقد تكون الحقيقة أمام عينيه ظاهرة واضحة إلا انه لا يراها لغشاوة في بصره من تلك التقاليد. فحرية الفكر هي العامل الوحيد الذي ينتشل المرء من هوة الضلال الى ذروة الحق والهدى.

إذا نظر المسلم الحر الفكر في الاسلام رأى فيه أموراً تنطبق تماماً على مبدأ الاشتراكية وتماشيه جنباً الى جنب. منها أنه جعل للفقراء حقاً في أموال الأغنياء. إذ فرض على هؤلاء أن يخرجوا في كل عام من أموالهم مقداراً معلوماً يدفعونه الى الفقراء وذلك هو الفرض المسمى بالزكاة.

ثم أنه لم يترك ذلك لرحمة الأغنياء وعطفهم بل جعل ولي الأمر وهو رسول الله أو الخليفة من بعده مكلفاً بأخذ هذا المال منهم ورده الى الفقراء. اذ قال في سورة التوبة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها».

ولما كان ولي الأمر لا يستطيع بنفسه وحده أخذ هذا المال وجمعه جعل له «عاملين» يقومون بجبايته. وذكر ذلك في سورة التوبة أيضاً بقوله «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها...» وهم الجباة الذين يقبضونها. وخلاصة القول انه جعل لها ما يقال له في كلام أهل زماننا (تشكيلات إدارية حكومية).

فالزكاة بالنظر الى هذا حق مفروض للفقراء في أموال الأغنياء. وليست هي بصدقة بل إنما سميت صدقة لأن صدق المرء في دينه يظهر بأدائها. وإلا فهي حق واجب الأداء. وقد عبر عنها بالحق في آية أخرى من سورة المعارج. قال: «والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» فالمراد بالحق هنا هو الزكاة بدليل وصفه بمعلوم لأن مقدار الزكاة التي تؤخذ من أموال الأغنياء مقدر معلوم كما هو مذكور في كتب الفقه الاسلامي. وإذا كان للفقراء حق في أموال الأغنياء أفلا يكون هذا منطبقاً على مبدأ الاشتراكية تمام الانطباق؟

لا حق في أموال الزكاة إلّا للمعدم الضعيف

ثم أن الاسلام لم يجعل هذا الحق للمعوزين من الفقراء لمجرد كونهم فقراء. كلا! بل هم بحالاتهم في الفقر مختلفون متفاوتون فمنهم العاجز الضعيف ومنهم القوي المكتسب. وكان رسول الله يعطي الأول ويمنع الثاني. قال في زاد المعاد «وكان من هدي رسول الله أنه اذا علم من الرجل أنه من أهل الزكاة أعطاه.. وان سأله أحد من أهل الزكاة ولم يعرف حاله أعطاه أيضاً ولكن بعد أن يخبره بأنه لا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

فمن هذا نعلم أن الشرع الاسلامي لا يعتبر للمرء حقاً في العيش إلا من عمله وكسبه. فالزكاة إنما هي للعاجز الضعيف لا للقوي المكتسب. وهذا ينطبق كل الإنطباق على مبدأ الاشتراكية الشيوعية التي لا تجيز أن تكون لأحد بسطة في عيشه إلّا بمقدار عمله. وما زاد عن ذلك فليس له بل للعموم.

ومما يدل على أن أموال الزكاة ليست في جبايتها كالضرائب التي تجبيها الحكومة لتجمعها في خزانتها، بل هي تجبى لتفرق وتوزع على الفقراء في محلها ما ذكره الرواة من أن رسول الله كان يفرق الزكاة على المستحقين الذين في بلد المال، وما فضل عنهم منها حمل إليه ففرقه هو. وذكروا أيضاً أنه أرسل معاذ بن جبل الى اليمن وأمره بأخذ الصدقة من أهلها وتفريقها على فقرائهم ولم يأمره بحملها إليه.

ان وجوب هذا الحق على الأغنياء يستند الى أمرين أحدهما التعاون المقضي به عليهم بحكم الإجتماع والذي ورد الأمر به في كتاب الله «وتعاونوا على البر والتقوى...» فإنهم يعيشون مجتمعين مع الفقراء مختلطين بهم بحيث تتألف من الجميع زمرة إجتماعية لحياة كل فرد منها صلة بحياة الآخر شاء أو أبى. ولا ريب أن كل زمرة اجتماعية من الناس تكون بمثابة بنيان واحد وكل فرد منها يكون بمثابة حجر في ذلك البنيان. فكما أن البنيان يشد بعضه بعضاً كذلك الذين يعيشون في مجتمع واحد يجب أن يشد بعضهم بعضاً بالتعاون. ولولا التعاون لما بقي للإجتماع معنى.

الثاني ان الفقراء هم الأكثرون في كل زمرة إجتماعية. وهم أرباب الحرف وأصحاب الكد والعمل. فهم في الحقيقة هم المنتجون لكل ما في أيدي الناس. فليس من الحق ولا من المروءة والإنصاف أن يستأثر عليهم الأغنياء بأموالهم. ومن ثم صار لهم حق في أموال الأغنياء. وهذا هو مبدأ الزكاة وهو منطبق على مبدأ الاشتراكية كل الإنطباق.

الكنز حرام في الإسلام

قد يكون الكنز اسماً للمال المحرز في وعاء أو للمال المدفون في الأرض. غير أن المراد به هنا معناه المصدري أي جمع المال وادخاره. فان ذلك حرام في الاسلام. قال في سورة التوبة «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

إدعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة وهي دعوى غير صحيحة. أولاً لأنها تستلزم تأخر آية الزكاة في النزول (وبعبارة أخرى) تستلزم تأخر فرض الزكاة عن آية الكنز. وهذا غير ثابت.

ثانياً ان كنز المال شيء والزكاة شيء آخر. والأول منهي عنه والثاني مأمور به ونسخ المنهي عنه إنما يكون بالإباحة. والزكاة التي هي إعطاء المال لا تتضمن إباحة كنزه. أي جمعه وإدخاره فكيف تكون ناسخة لها.

فإن قلت من لم يكن له كنز لم تجب عليه الزكاة لأنه ليس بذي مال ومن كان كذلك فلا زكاة عليه، قلت ان وجوب الزكاة لا يتوقف على وجود الكنز بدليل أن نصاب الزكاة هو عشرون مثقالاً من الذهب ومئتا درهم من الفضة فكل من ملك هذا المقدار زائداً عن حاجته وجبت عليه الزكاة. وبديهي أن هذا المقدار هو دون الكنز.

ثالثاً ان هناك قرائن تدل على أن آية الكنز متأخرة عن آية الزكاة. منها أنها لم تذكر الا مرة واحدة في سورة مدنية فقط. والزكاة ذكرت مراراً في سور مكية وفي سور مدنية. وهذا يدل بوضوح على أنها متقدمة في النزول على آية الكنز والمتقدم لا ينسخ المتأخر. ومنها أنه جاء في سورة التوبة

التي ذكرت فيها آية الكنز قوله تعالى «فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم».

ان هذه الآيـة مذكورة في أوائل سورة التوبة وآية الكنز مذكورة في أواخـرهـا. والخطاب فيها للمسلمين يأمرهم بقتال المشركين والتشديد عليهم بعـد انقضـاء المدة التي ضربهـا لإمهالهم فقوله فيها «أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة» يستلزم أن الزكاة كالصلاة كانت مفروضة معلومة عند المخاطبين قبل نزول آية الكنز. وعليه ففرض الزكاة متقدم على نزول آية الكنز.

رابعـاً أن ابـا ذر الغفاري أحد أصحاب رسول الله كان على مبدأ الاشتراكية بأوسع معانيها. فكان بعد وفاة رسول الله يدعو المسلمين الى ترك الكنز. حتى انه لما ذهب الى الشام في أيام معاوية صار يدعو الى ذلك أيضاً ويشنع على معاوية وأمثاله من المثرين ما هم عليه من كنز الأموال وجمعهـا وإدخـارهـا حتى ضجر منه معاوية، وأراد ان يختبر صدقه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار. ثم دعاه بعد بضعة أيام وفتش عن المال فلم يجد عنده شيئاً منه فسأله أين هو فقال فرقته على فقراء المسلمين. ولا ريب أن أبا ذر هذا صحابي جليل كان له إتصال برسول الله فهو حجة في إثبات ما نحن فيه. فلو كانت آية الكنز منسوخة لما قال بتحريم الكنز ولا دعا المسلمين الى تركه.

خامسـاً جاء في الأحـاديث النبوية ما يوافق آية الكنز التي تحرمه وتنهى عنـه ومـا يخـالفهـا. ولا ريب أن أصح الأحاديث النبوية هي الأحاديث التي يؤيدها القرآن. فيجب أن تعتبر صحيحة وان ضعفت أسانيدها. وما خالف القرآن من الأحاديث يجب أن يعتبر غير صحيح وان صحت أسانيده. لأن القرآن قطعي الورود وان كان ظني الدلالة. فمن الأحاديث التي جاءت موافقة للقرآن في تحريم الكنز ما رواه سالم بن الجعد أنه لما نزلت آية الكنز قال رسول الله تباً للذهب تباً للفضة. قالها ثلاثاً. فقالوا له أي مال نتخذ يا رسول الله. قال لساناً ذاكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحدكم على دينه. ومنها ما روي عن رسول الله أيضاً

«من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها» ومنها انه توفي رجل فوجد في مئزره دينـار. فقال رسول الله كية. وتوفي آخر فوجد في مئزره ديناران. فقال كيتان. وأما قولهم بأن هذا كان قبل فرض الزكاة فباطل لأن فرض الزكاة متقدم على آية الكنز، كما مر ذكره.

مقدار الكنز

لا ريب أن دين الاسلام هو دين التيسير لا تشديد فيه ولا تعسير كما جاء في القرآن «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» فليس من الموافق لنهج الاسلام أن يكون الكنز محرماً على الاطلاق بل يلزم أن يكون له حد محـدود ومقدار معلوم. غير أنه لم يرد في الأثر ما يدل على تعيين هذا المقدار، سوى ما روي عن علي بن ابي طالب أنه قال «أربعة آلاف فما دونها نفقة وما زاد فهو كنز» كما ذكره الزمخشري في الكشاف. ولا شك أن علي بن أبي طالب لم يقل ذلك من عنده بل قاله عن علم تلقاه من رسول الله فهو حجة في هذا الباب. ومهما يكن فمن الجائز أن يقال بأنه يجوز كنـز المقـدار الذي يسـد الحـاجة ويقوم بالنفقة وهذا المقدار يختلف باختـلاف الأشخـاص كما يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال. ومهما يكن هذا المقدار فلا بد أن يعد كنزا كل ما زاد على الحاجة والنفقة.

وقد جاء في الحديث النبوي ما يدل على هذا ويؤيده. وذلك في حديث وفـد الأزد. فقد ذكروا أنهم لما دخلوا على رسول الله وتكلموا بين يديه أعجبه ما رأى من سمتهم وما سمع من كلامهم وسألهم عن أمور أحسنوا فيها الجواب حتى قال معجباً بهم: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» ثم قال لهم «ان كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون...» الى آخر الحديث كما في زاد المعاد.

فقوله «لا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون» صريح في أنه لا يجوز إدخار ما زاد على الحاجة ولا بناء ما زاد على دار للسكنى. على أن هذه العبارة تتضمن نفي الملك أيضاً، اذ المفهوم منها أنه ليس للمسلم ان يملك أكثر من دار واحدة لسكناه فقط.

النتيجة

كل ما ذكرناه لك فيما تقدم يريك بوضوح أن دين الاسلام بعيد كل البعد عن (الرأسمالية) الجشعاء الظالمة المستبدة بنعم الله التي جعلها مشاعة بين خلقه. كما أنه بمبادئه الحقة منطبق كل الانطباق على مبدأ (الاشتراكية الشيوعية) التي تبطل الملك ولا تجعل للمرء بسطة في عيشه إلا بمقدار ماله من كل دائب وعمل منتج.

ولكن الجهلاء يسمون هذه المباديء السامية بالمباديء الهدامة وهي كذلك لعمر الله هدامة، إلا أنها لا تهدم إلا ما هم عليه من ضلال وباطل. حيث نراهم بجشعهم واستئثارهم يمثلون الهمجية (الاقطاعية) على وجه لم يسبق له نظير في العصور المظلمة. فنرى الواحد منهم يملك القناطير المقنطرة والعقارات الكثيرة والأراضي الواسعة والقصور العالية تمر به الأيام والليالي وهو في قصف ولهو. وحوله الوف من الناس الفقراء الذين لا يجد أحدهم كوخاً يسكنه ولا رغيفاً يقتاته. وهم كما وصفهم رسول الله «الشعث الرؤوس الدنسو الثياب الذين لا تفتح لهم السدد يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره».

فبالله عليك أيها القاريء الكريم من ذا الذي هو أشد احتياجاً منا الى معاول هدامة نهدم بها بنيان أباطيلهم هذه على رؤوسهم الجوامح ونبني مكانها صروح الحق عالية في ساحة المساواة العادلة والحياة الحرة. وان ربك لبالمرصاد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

الاشتراكية في الاسلام

لو افتكر الانسان حرا لتجلت له الحقيقة بوجهها الاغر البهيج. اما اذا قيد فكره باقوال الناس وتقاليدهم فلا يخرج في افتكاره من ظلمة الى اخرى. وقد تكون الحقيقة امام عينيه ظاهرة واضحة الا انه لا يراها لغشاوة في بصره من تلك التقاليد. فحرية الفكر هي العامل الوحيد الذي ينتشل المرء من هوة الضلال الى ذروة الحق والهدى.

مؤلفات الرَّصافي وماكُتبَ عنهُ

التصفيق

كان العرب في القديم اذا رأوا امراً يكرهونه او سمعوا كلاماً ينكرونه صفقوا استنكاراً له وتعجباً منه. كما يدل على ذلك ما فعله كفار قريش لما قال لهم رسول الله وهم عند عمه ابي طالب «اعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»، فقال ابو جهل نعم وابيك وعشر كلمات. فقال رسول الله: «تقولون لا آله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بايديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد ان تجعل الآلهة آلهاً واحداً ان امرك لعجب.

وقد صار الناس اليوم يستعملون التصفيق للاستحسان و للتعظيم والاجلال، كما يفعلون ذلك اليوم في مجتمعاتهم اذا استحسنوا كلاما سمعوه او استقبلوا رجلا عظيما اجلّوه واحترموه. الا ان هذه العادة فيهم حديثة، ولم يكونوا يعرفونها من قبل وانما انتقلت اليهم من أهل الغرب. وهم وان كانوا قد تعودوها الا انهم لم يزالوا يخطئون مواقع استعمالها احيانا فلا يصيبون الغرض المطلوب منها كما يصيبه اهل الغرب. حتى ان التصفيق الذي نراه ونسمعه في مجتمعاتهم وحفلاتهم يكون مصدره في الاكثر من رجل واحد

مؤلفات الرصافي

(أ) المطبوعة

١ ـ **ديوان الرصافي**، الطبعة الأولى، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩١٠
الطبعة الثانية، مطبعة المعرض، بيروت، ١٩٣٢
الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٥٩

٢ ـ **الرؤيا**، رواية مترجمة عن التركية للأديب التركي نامق كمال، نشرت ببغداد عام ١٩٠٩.

٣ ـ **دفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة**، مطبعة (صداي ملت)، استانبول، سنة ١٣٣١هـ (توافق ١٩١٢م).

٤ ـ **نفح الطيب في الخطابة والخطيب**، (مجموعة المحاضرات التي ألقاها في مدرسة الواعظين بالأستانة)، مطبعة الأوقاف الإسلامية بالأستانة سنة ١٣٣٦ هجرية الموافقة لسنة ١٩١٧م.

٥ ـ **الأناشيد المدرسية**، نشرت في القدس عام ١٩٢٠ ومع كل نشيد لحنه بالنوتة الموسيقية.

٦ ـ **محاضرات الأدب العربي**، (مجموعة المحاضرات التي ألقيت على مدرّسي المدارس الرسمية في بغداد)، مطبعة العراق، بغداد، ١٩٢١.

٧ ـ **تمائم التربية والتعليم**، (رسالة شعرية)، بيروت، ١٩٢٤.

٨ ـ **صلاح اللغة العربية للتدريس وما يجب أن يكون عليه مدرّس اللغة العربية**، (محاضرة ألقاها في البصرة حين كان مفتشاً للغة العربية في وزارة المعارف)، مطبعة الفرات، بغداد، ١٩٢٦.

٩ ـ **دروس في تاريخ اللغة العربية**، (مجموعة المحاضرات التي أُلقيت على طلّاب دار المعلمين العالية ببغداد عام ١٩٢٨).

١٠ ـ **رسائل التعليقات**، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٤.

١١ ـ **على باب سجن أبي العلاء**، (تعليقاته على كتاب مع أبي العلاء في سجنه لطه حسين)، دار الحكمة للنشر والطباعة، بغداد، ١٩٤٦.

١٢ ـ **عالم الذباب**، (رد على ما جاء في رسالة «عالم الذباب» للدكتور فائق شاكر)، بغداد، ١٩٤٦.

١٣ ـ **الأدب العربي ومميزات اللغة العربية**، بغداد، ١٩٥٢.

١٤ ـ **آراء أبي العلاء المعرّي**، بغداد، ١٩٥٥.

١٥ ـ **نظرة إجمالية في حياة المتنبي**، بغداد، ١٩٥٩.

ب ـ (المخطوطة)

١ ـ **الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس**، (نسخة مصورة منه في مكتبة المجمع العلمي العراقي).

٢ ـ **الأدب الرفيع في ميزان الشعر**، (مجموعة محاضراته التي ألقاها على طلاب دار المعلمين العالية ببغداد في علم العروض والقافية).

٣ ـ **الرسالة العراقية**، (بحث في السياسة والدين والاجتماع، كتبه في الفلوجة عام ١٩٤٠).

٤ ـ **كتاب الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات**

٥ ـ **دفع المراق في كلام أهل العراق**، وهو محاولة لرد اللغة العامية العراقية إلى أصولها والمصادر التي انتقلت منها إليها، والتعريف بمعاني الأمثال البغدادية وشرح كلماتها. وقد نشر جزء من هذا الكتاب في مجلة (لغة العرب) التي كان يصدرها الأب أنستاس الكرملي في بغداد عام ١٩٢١، ثم نشرت أجزاء أخرى في جريدة (حبر بوز) التي كان يصدرها نوري ثابت في بغداد أيضاً. وقد نشر القسم الأول منها في العدد (١٦) الصادر في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ ثم في أربعة أعداد تالية.

كتب عن الرصافي

١ ـ **الدكتور ابراهيم الكيلاني**، معروف الرصافي ـ دراسة أدبية ونفسية واجتماعية. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨.

٢ ـ **الدكتور أحمد مطلوب**، الرصافي: آراؤه اللغوية والنقدية، القاهرة، ١٩٧٠.

٣ ـ **الدكتور بدوي أحمد طبانة**، معروف الرصافي: دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٧، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٧.

٤ ـ **الشيخ جلال الحنفي**، الرصافي في أوجه وحضيضه، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢.

٥ ـ **رؤوف الواعظ**، معروف الرصافي ـ حياته وأدبه السياسي، دار الكتاب بمصر، القاهرة، بلا تاريخ (حوالي ١٩٦١).

٦ ـ **سعيد البدري ونعمان ماهر الكنعاني**، الرصافي في أعوامه الأخيرة، بغداد، ١٩٥٠.

٧ ـ **سعيد البدري**، آراء الرصافي في الدين والاجتماع، بغداد، ١٩٥١.

٨ ـ **سعيد البدري**، ذكرى الرصافي، بغداد، ١٩٥٩.

٩ ـ **عبد الحميد الرشودي**، ذكرى الرصافي، بغداد، ١٩٥٣.

١٠ ـ **عبد الصاحب شكر**، المنهل الصافي من أدب الرصافي، بغداد، ١٩٥٠.

١١ ـ **عبد الصاحب شكر**، عبقرية الرصافي، بغداد، ١٩٥٨.

١٢ ـ **عبد اللطيف شرارة**، الرصافي، مكتبة دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.

١٣ ـ **الدكتور عبد الله الجبوري**، الرصافي ـ نقد وتعريف، بغداد، ١٩٦٠.

١٤ ـ **قاسم الخطاط ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ومحمد عبد المنعم خفاجي**، معروف الرصافي شاعر العرب الكبير: حياته وشعره، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.

١٥ ـ **مصطفى علي**، أدب الرصافي: نقد ودراسة، القاهرة، ١٩٤٧.

١٦ ـ **مصطفى علي**، الرصافي، صلتي به، وصيته، مؤلفاته، القاهرة، ١٩٤٨.

١٧ ـ **مصطفى علي**، محاضرات عن الرصافي، منشورات معهد الدراسات العربية العليا بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٣.

١٨ ـ **مهرجان الرصافي**، الكلمات التي ألقيت في المهرجان الذي أقيم لإحياء ذكرى الرصافي في بغداد عام ١٩٥٩.

١٩ ـ **هلال ناجي**، القومية والاشتراكية في شعر الرصافي، بيروت، ١٩٥٩.

كتب عرضت للرصافي أو تضمنت فصلا عنه

١ ـ **أحمد أبو السعد**، الشعر والشعراء في العراق ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨.
٢ ـ **أحمد فيّاض المفرجي**، المرأة في الشعر العراقي الحديث، بغداد، ١٩٥٨.
٣ ـ **أمين الريحاني**، قلب العراق، (الأعمال الكاملة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٤ ـ **أمين الريحاني**، سلوك العرب: فيصل الأول (الأعمال الكاملة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٥ ـ **أنيس المقدسي**، أعلام الجيل الأول من شعراء العربية في القرن العشرين، بيروت، ١٩٧١.
٦ ـ **الدكتور جميل سعيد**، نظرات في التيارات الأدبية الحديثة في العراق، القاهرة، ١٩٥٤.
٧ ـ **خير الدين الزركلي**، الاعلام، الجزء الثامن، الطبعة الثالثة (بلا تاريخ) ص ١٨٤.
٨ ـ **الدكتور داود سلوم**، مقالات عن الجواهري وآخرين، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧١.
٩ ـ **رفائيل بطي**، الأدب العصري في العراق العربي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٣.
١٠ ـ **الدكتور سليم داود**، تطور الفكر والأسلوب في الأدب العراقي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٠.
١١ ـ **الدكتور شوقي ضيف**، دراسات في الشعر العربي المعاصر، القاهرة، ١٩٥٩.
١٢ ـ **عبد الكريم الدجيلي**، محاضرات عن الشعر العراقي الحديث، القاهرة، ١٩٥٩.
١٣ ـ **مارون عبود**، على المحك: نظرات وآراء في الشعر والشعراء، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٦.
١٤ ـ **محمد بهجة الأثري**، المدخل في تاريخ الأدب العربي، بغداد، ١٩٣٨.
١٥ ـ **الدكتور يوسف عز الدين**، الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

مقالات مختارة عن الرصافي

١ ـ **ابراهيم الوائلي**، الرصافي والتاريخ .، جريدة (الأخبار)، بغداد، ١٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٩.
٢ ـ **أحمد حسن الزيات**، الرصافي، مجلة (الرسالة)، القاهرة، العدد ٦١٢، ٢٦ آذار ١٩٤٥.
٣ ـ **بسيم الذويب**، الرصافي الثائر، جريدة (الزمان)، بغداد، ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٥٩.
٤ ـ **حسن كامل الصيرفي**، ديوان الرصافي، مجلة (أبولو)، القاهرة، يناير ١٩٣٤.
٥ ـ **حسين مروة**، الرصافي في موكب الثائرين الخالدين، مجلة (الثقافة الوطنية)، آذار، ١٩٥٩.
٦ ـ **رفائيل بطي**، الرصافي، مجلة (الأديب)، بيروت، المجلد الرابع، ١٩٤٥.
٧ ـ **الدكتور صالح جواد الطعمة**، الوعي الفكري في شعر الرصافي، مجلة (الثقافة الجديدة)، بغداد، آذار (مارس)، ١٩٥٩.
٨ ـ **الدكتور صفاء خلوصي**،

Dr. S. Khulusi, (Ma'ruf al-Rasafi)
Bulletin of S.O.A.S., Vol. XIII, Part 3, London, 1950.

وقد ترجم هذا البحث الى اللغة العربية في كراسة بعنوان «الرصافي» بقلم عبد الجبار السامرائي، بغداد، ١٩٥٣.

٩ ـ **الدكتور عبد الوهاب السلوم**، الاتجاهات الانسانية لدى الرصافي، جريدة (الأهالي)، بغداد، ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٥٩.
١٠ ـ **قاسم الخطاط**، صفحات مطوية من حياة الرصافي، مجلة (الهلال)، القاهرة، العدد الخامس، أيار (مايو)، ١٩٦٤.
١١ ـ **محمد شرارة**، الروح الوطنية في شعر الرصافي، جريد (الحضارة)، بيروت، العدد (٩) السنة (٢٢).
١٢ ـ **مهدي قزاز**، الشاعران الرصافي والزهاوي، مجلة (الأديب)، بيروت، أيلول (سبتمبر)، ١٩٤٤.
١٣ ـ **نجدة فتحي صفوة**، الرصافي والزهاوي، مجلة (الكتاب)، القاهرة، السنة السابعة، العدد ٣، المجلد ١١، آذار (مارس) ١٩٥٢.
١٤ ـ **نجدة فتحي صفوة**، أين أصدقاء الرصافي وأين طلابه؟ بمناسبة إزاحة

الستار عن تمثال الرصافي في بغداد، جريدة (الجمهورية)، بغداد، ١٩٧٠/١٢/٢١.

١٥ ـ **افتتاحيات الصحف العراقية اليومية**، بمناسبة عقد مهرجان الرصافي في بغداد، ١٦ ـ ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٥٩.

أعداد خاصة عن الرصافي

١ ـ جريدة (الأخبار) البغدادية العدد (٣٦٩٨) الصادر في ١٤ آذار (مارس) يحتوي على مقالات عن الرصافي لنعمان ماهر الكنعاني، صفاء خلوصي، سعيد البدري، محمود العبطة، غازي العياش، مهدي الجبوري، مشكور الأسدي.

٢ ـ مجلة (الوادي) ـ عدد خاص بمناسبة ذكرى الرصافي، العدد ١٥ الصادر في ١٤ آذار (مارس) ١٩٥٩، فيه بحث بقلم كامل الجادرجي عن كتاب الرصافي «الشخصية المحمدية»، وحديث لمحمد رضا الشبيبي عن ذكرياته مع الرصافي ورأيه في شعره السياسي، وحديث مع منير القاضي، رئيس المجمع العلمي العراقي عن الرصافي وذكرياته عنه، ومقال بقلم مصطفى علي «دفاع الرصافي عن حرية الصحافة».

ونشرت المجلة أيضاً وثيقة عن الرصافي، هي رسالة بخطه الى كامل الجادرجي مؤرخة في ١٩٤٤/٤/١٩ يشير فيها الى احترافه مهنة بيع السجائر، ومقالة بقلم خالد الدرة بعنوان «الهاربون من جهنم»، ومقالة للأستاذ محمد بهجة الأثري «ذكريات عن الرصافي»، وكلمة عنه بقلم محي الدين اسماعيل عن ذكرى الرصافي.

٣ ـ مجلة (الثقافة الجديدة): عدد خاص عن ذكرى الرصافي. العدد الثاني، آذار (مارس) ـ نيسان (ابريل) ١٩٥٩ فيه بحوث منوعة عن الرصافي منها بعد تصدير المجلة:

(أ) «الرصافي شاعر الكادحين» ـ بقلم صلاح خالص.

(ب) «الرصافي ومذهبه الاجتماعي» ـ بقلم وديعة طه النجم.

(جـ) «الرصافي بين المحافظة والتجديد ـ الجانب اللغوي» ـ بقلم ابراهيم السامرائي.

(د) «الرصافي والإبداع الفني» ـ بقلم محمد شراره.

(هـ) «ثورة الرصافي» ـ بقلم يوسف عز الدين.

(و) «الرصافي المصور الثائر» ـ بقلم فريد الطاهر.

٤ ـ مجلة (ألف باء)، بغداد، العدد ٥٤٦، السنة الحادية عشرة، ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٩. ملف عن الرصافي بمناسبة مرور ١٤ عاماً على رحيله، مقالات وذكريات بقلم رشيد الرماحي وخيري العمري وعبد القادر البراك وصادق الأزدي.